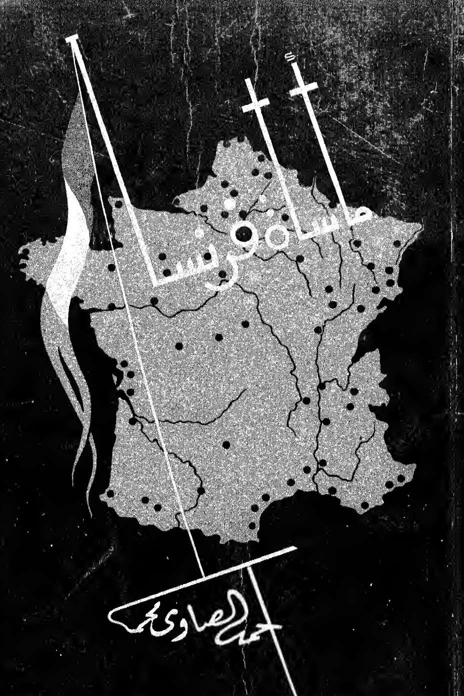
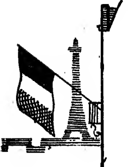

مأساة فرنسا
محمد الصاوي محمد

أحمد الصاوي محمد



مأساة فرنسا

الاهداء

الى صديقى الاستاذ الكبير

محمــــود أبو الفتح

نقيب الصحفيين

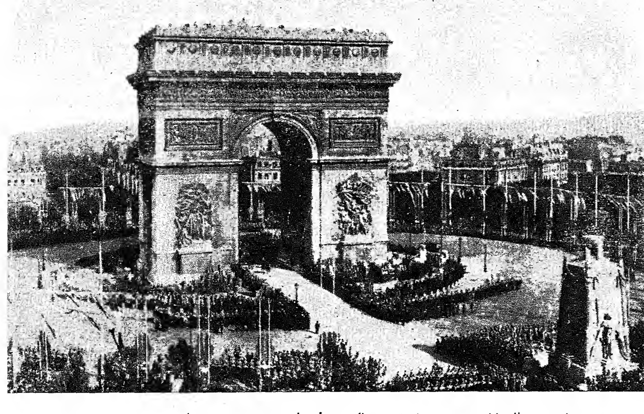
الذى تفضل فأفسح صدر « المصرى » منذ عام ،
فى هذه الظروف الدقيقة ؛ لصفحاتى الاسبوعية

اعجاباً بجهاده الصحفى العظيم
وتقديراً لوده المقيم ...

ص .

الوثائق أداة خرساء في يد من لا يعرف كيف
يحييها وينفخ من روحه فيها . . . « رينان »

إنني لم أحاول أن أدافع أو أن أهاجم ، وإنما حاولت جهدي أن
أتقن الرسم وأضيء جيداً معالم الصورة . . . « أندريه جيد »



احتفال المنتصرين حول قوس النصر فى باريس يوم ١٤ يولية سنة ١٩١٩

Nik. P. Pachitch

Ante Trumbić

Mil. R. Vesnitch

[illegible]

[illegible]

[illegible]

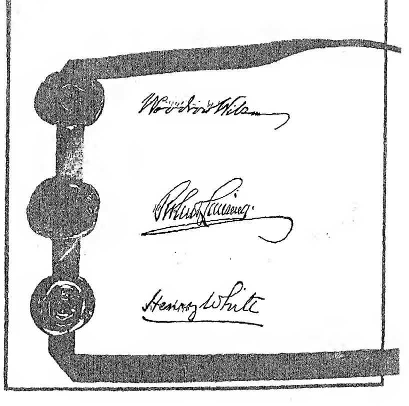
Dr Edvard Beneš

[illegible]

أختام معاهدة ڤرساى على النسخة الوحيدة منها المحفوظة

بباريس ، وفى أولها امضاء الرئيس ويلسون

وفى هذه الصفحات الأربع ترى فصول المأساة كلها





دخول الألمان قوس النصر بباريس فى يونية سنة ١٩٤٠



١

المؤلف يستعرض ٢٢ عاماً :
من حرب الى حرب
هزيمة المنتصرين ١٩١٨ — ١٩٤٠

« إنك تعــرف ياهنيبال كيف تنتصر ،
ولكنك لاتعرف كيف تنتفع بانتصارك »

● ليست هذه الصفحات قصائد رثاء، ولكنها دروس حية باقية، تُضرَب للناس فى كل زمان ومكان، فى سقوط الأمم ونهوضها، وأسرار تدهورها بعد تقدُّمها. تتحرى فيها الحقائق والوقائع، وتواجهها ولا تخشاها..

ومن عجائب القدر أن الماريشال بيتان قد وضع، قبيل الحــــرب، مقدمة كتاب « انتصار المنهزمين La Victoire des Vaincus » جاء فيها هذا الإنذار الخطير لبلاده :

« إن دراسة العشرين سنة الأخيرة، قد برهنت على أن الشعب هو صاحب الأمر والنهي فى مستقبله، وهو سيد مصيره ؛ فاذا كان قد غلب على أمره أمكنه ـ

بالإرادة الصابرة المثابرة ـ أن يحوّل انكساره إلى انتصار ، وإذا كان ظافراً ، فهو يجازف ـ بضعفه وإهماله وتراخيه ـ بخسارة ثمرات انتصاره ... »

وهذا الرأى هو خلاصة الكتاب الذى وضعه « أندريه فريبورج » العالم المؤرخ ، والسياسى ، وأحد المحاربين القدماء ، فقد شاهد المؤلف ، وهو مكلوم الفؤاد ، انهيار آمال وطنه (قبل الحرب العالمية الحاضرة التى انهار فيها وطنه كله)

وفى الوقت نفسه كان قد ظهر كتاب آخر اسمه « إنهاض ألمانيا ، Le Relèvement de l'Allemagne » بقلم « البير ريفو » الأستاذ بالسوربون ومدرسة العلوم السياسية ، وعضو أكاديمية العلوم الاجتماعية بباريس ، وهو فيلسوف وبحاثة رفيع المكانة ، ولكنه ليس رجلا تائهاً فى بيداء الفلسفة ، أو مذهولا فى وادى الحكمة ، أو متصوفا فى برج من العاج . . بل إنه يحب الواقع ويتحراه ، ويقدره . فشغف فى السنين التى سبقت ١٩٣٩ ، كعالم نفسى ومؤرخ ، ووطنى فرنسى ، بدراسة

أحوال ألمانيا الجديدة ، ودرسها فى أرضها ، وبين أهلها ، وطالع كل ما كتب فيها وعنها ...

وهو من أعظم الفرنسيين خبرة بالشئون الألمانية ، ولشهادته وزن كبير : « إننا إذا نظرنا إلى ألمانيا تعلمنا أن لا شىء مستحيـــل فى الوجود ، بل كل شىء فى الإمكان ، لمن لا يعرف اليأس والقنوط ، لا فى نفسه ولا فى أمته ؛ وإن أشد الأدواء خطراً واستعصاء يمكن شفاؤها ، إذا عولجت بعزم وحزم وكفاية وأمانة » .

● وخلاصة هذين الكتابين اللذين أحدث ظهورهما قبيل الحرب ضجة كبرى ، هى أن الحرب العالمية ، التى نصلى بنارها الآن ، تعد — من جهة — نتيجة الأخطاء الشنيعة التى ارتكبها ، خلال عشرين سنة ، المنتصرون فى سنة ١٩١٨ وتعد كذلك — من جهة أخرى — نتيجة للإرادة الحديدية الجريئة ، والمثابرة السياسية التى اتبعها المهزومون .

وقد استطاعت ألمانيا أن تتخلص ببراعة من الهجوم الذى كان يعد لها فى اللورين ، ليكون طامتها الكبرى مثل " سيدان " أو " إيينا " ... فهى لم تذق طعم الغزو ..

ولم تشعر بوطأة الذل . . وقد تُركت فى سنة ١٩١٨ تنتهك حياد هولندا فى تقهقرها ، لتعود بأسلحتها إلى بلادها . . وقـــد خضع الحلفاء فى ذلك لأسباب إنسانية ، وكان لهذا الخضوع ثمنه الفادح الذى دفعوه ، وما زالوا يدفعونه ، فى الحرب الحالية . وفى هذا الصدد يقول أيضاً الماريشال « بيتان » فى المقدمة السالفة الذكر : « إن غلطتين كبيرتين كان لهما أثرهما السيِّء فى المستقبل ، ففى نوفمبر سنة ١٩١٨ وقِّعت الهدنة فى أرض فرنسية ، فى حين كان ينبغى ، قبل أى توقيع ، احتلال جزء من أراضى العدو . وكذلك سمح للجيش الألمانى المنهزم أن يعود إلى ألمانيا ، دون أن يسلِّم ويلقىَ السلاح . . . »

وهذا التساهل هو الذى أدّى أيضاً بالحلفاء إلى عدم إدخال "الروهر" فى المنطقة المحتلة ، مع أنه ترسانة القوى الألمانية .

وإن من السهل انتقاد معاهدة فرساى على الورق . . فهى المعاهدة التى لم تُرضِ المنتصرين ولا المنهزمين جميعاً . . حتى ان « لويد جورج » عندما حمل عليها بعد ذلك

حملات شعواء، وهو أحد واضعيها، وسئل فى هذا التناقض قال، مشيراً إلى كلمنصو والرئيس ويلسون: «وما حيلتى وقد كنت بين شخصين أحدهما يزعم نفسه نابليون، والآخر يظن أنه السيد المسيح ؟!»

لم تعد معاهدة فرساى إلا «قصاصة ورق» سرعان مامزقت.. حتى إيطاليا خرجت منها ممرورة حاقدة.. والنمسا منحلة لا كيان شخصى لها، وبولونيا سيئة الدفاع معرّضة من كل جانب للمهالك... وأخطر من هذا كله ما أصاب الحلفاء من الفرقة، والتشتت، والاختلاف.

فماذا رأينا منذ عشرين سنة ؟

● كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى أول من تنكر للرئيس ويلسون، ورفضت الموافقة على معاهدة فرساى، أو دخول عصبة الأمم التى ابتكرها رئيسها. وظلت مذبذبة تنفض يدها من الشئون الأوربية حيناً، وتتدخل فجأة بنزوة عارضة عنيفة، مما يدل على التقلقل السياسى الذى أدى، لسوء الحظ، إلى فقدها معنويات دخولها الكريم فى الحرب..

وكذلك ذهبت انجلترا فى التسامح مع عدوها إلى أقصى حد ، تحت رياسة لويد جورج والعماليين ، فأبت الإصرار على دفع المانيا التعويضات ، أو احتلال منطقة الرين، أو متابعة الفرنسيين فى احتلال الروهر. بل لقد تفانت فى الكرم - كما لاحظ السياسى الكبير أندريه تارديو - إذ قدّر مابسطت به يدها لعدوها بالأمس ، وعدوها اليوم ، بديون تقدر بنحو ٥٠٦ مليار فرنك ، جمدتها هذه الحرب ، وحوّلها العدو ، بالطبع ، إلى طوربيدات للغواصات ، وقنابل محرقة للطائرات . . .

وليست فرنسا بأسعد حالا . . فلم يكد الخطر ينجلى عنها حتى ابتدأ النزاع الحزبى يمتد ، والنفع الشخصى يشتد ، ونسيت فرنسا أنها خرجت نصف مخرّبة ، بعد جهاد طويل . سقطت فيه زهرة شبيبتها ، التى لن تعوّض ، فى ساحات الوغى .

ولم يكن من أهلها من له شجاعة إيقاظها وتنبيهها إلى الهاوية التى تحت قدميها . . فمنذ سنة ١٧٨٩ ، وهى تنتقل من ثورة إلى ثورة ، ومن عناد إلى خصومة ، إلى

نزاع ، وفرنسا كالشحاذ الذى يمد يده فى طلب نظام سياسى، يناسبها ، وليس من يعطيها ماتسأل . . فقد غرست فى حكامها كما لاحظ أميل فاجيه : « الرعب من المسئولية » و « تفوق عدم الكفاية » . . وقد أوقفت الأسرة ضد الحكومة ، وشجعت ، بقصر نظر لايغتفر ، كراهية الدين ، وتعاطى الخمور ، والإقلال من النسل .

● وكان ينبغى ، غداة الحرب ، تنقيح الدستور وتعديله ، على قاعدة تجعل للحكم نفوذاً وسلطاناً . يحترم الحريات الضرورية ، ولكن لاتعوزه إرادة التقدم . . ومن نكد طالع فرنسا أنها لم تجد الرجل القدير على تحقيق هذا الإصلاح الإنشائى الحاسم ، نعم انها لاتخلو من سياسيين أمناء أذكياء ، إلا أنهم كانوا مترفين أفسدتهم الأهواء البرلمانية ، وليسوا من الحزم والعزم بحيث يقبضون ، بيد من حديد ، على مستقبل فرنسا .

وتبع هذا الإهمال الأليم ، فى السياسة الداخلية ، تقصير خطير فى السياسة الخارجية . . فتركوا الألمان يطردونهم من الروهر ، بلا تعويض ، وتخلوا عن ضفة الرين

اليسرى . قبل موعد الجلاء ، وعدلوا ، بحماقة ، عن طلب التعويضات لما أصاب بلادهم من دمار . . فدفعوا تكاليف بلادهم المخرّبة من عرق جبينهم . . وأباحوا للألمان أن يعيدوا تسلحهم بحرية تامة ، وأن يقيموا الشكنات على حدودهم ، وأن يضموا إليهم النمسا ، وبلاد السوديت ، ثم تشيكوسلوفاكيا ، ثم مل . . . فكانت هذه كلها بمثابة الشُهُب المنذرة بحرب واقعة لامحالة . .

● ويمكن أن يقال ، إنصافا للحاكمين ، وتفسيراً لألوان الفشل والخيبة والتقاعس هذه : ان الحكومات الفرنسية المتعاقبة لم تكن مؤيدة بالرأى العام الفرنسى كما ينبغى ، فالفرنسى مشهور بأنه يجود بدمه ، ويضن بذهبه ، وهوعدو لدود للضرائب . وهذه العداوة هدّامة للدخل تحول دون الانفاق على الدفاع والتسليح ، لذلك كان لايصادف هوى من نفسه إلا الدعوة لنزع السلاح ، والتوفيق بين الشعوب ، والايمان بعصبة الأمم ، والثقة بألمانيا الجمهورية « الطيبة القلب » ، والتشكك فى قيمة الجهاد ونفعه ، وتقديس الكسل والتراخى وفتور الهمة .

واندفع، بنزعة الشح والأنانية ، فى سبل الاستهتار بقوة عدوه، والغرور بعظمة موارده، حتى دفع فى خنادق اللورين ، وفى خط ماجينو ، وفى ساحات الفلاندر ، أفدح الضرائب، عن رأسمال باهظ من الأخطاء والأوهام، وإيثار المصالح الذاتية على المصالح القومية ..

● وإزاء هؤلاء الخصوم — المنقسمين على أنفسهم ، المستضعفين بمنازعاتهم الداخلية — وقفت ألمانيا تعمل بفطنة وبراعة، وأخذت تدعم الروح المعنوى، وتوحد بين القلوب والعقول والأيدى العاملة .. فكانت - على خلاف فرنسا سنة ١٨٧١ - لم تقبل هزيمتها ، ولم تستسلم لعواقب هذا الانهزام، وكان فكرها الثابت، البعيد الغور، هو تحطيم معاهدة فرساى .. وفازت بأساس ذلك، وهو الوحدة القومية التى مكنتها من إنهاض عثارها ، ووضع نواة التنظيمات العسكرية ، بين سمع الحلفاء وبصرهم . زد على هذا قناعاً خادعاً أسدلته باسم (الجمهورية) الألمانية ،ودستوراً زعمته (ديموقراطياً) ، حافظت من تحتهما على حُلمها بالسيادة العالمية الذى فرضته العقيدة الجرمانية باعتباره مثلا أعلى ..

هذا الحلم الذى ترجع أصوله التاريخية إلى أزمان سحيقة ، والذى ظلت ترسم طرق تحقيقه خلال القرنين: التاسع عشر ، والعشرين ، على يد فلاسفة الألمان ومؤرخيهم* ورجال الاقتصاد والدبلوماسية ، والحكومة والجندية — ذلك الحلم الهائل الذى بدأ « بسمارك » بتشييده وإخراجه من الرسم إلى الطبيعة . . حتى يؤسس « بالحديد والنار » امبراطورية ألمانية جديدة . . وبعد ماعمله فى هذا السبيل ترك لها ميراثاً ومثلا : أما الميراث فهو من تقاليد مملكة بروسيا التى تجعل « الحرب صناعة وطنية » . . وأما المثل فهو نجاح هذه المملكة نفسها فى هذا المضمار . .

● وجاء غليوم الثانى . فألفى نفسه سيد ألمانيا الموفورة الرخاء ، العظيمة الانتاج ، القوية السلاح ، التى تنحنى أمامها الدنيا بأسرها ، فتضخم حلمه بسيادة أوربا ، واستمع إلى نصائح حاشيته السياسية والحربية ، وإلى أمانى شعب مفتون بالبأس والسلطان ، فألهب نيران الحرب

* راجع مؤلفات كارل لمبرخت Karl Lamprcht أشهر مؤرخى ألمانيا اليوم .

العظمى . . ولم تكن النتيجة «ماأراد أن تكون» . . فاختنق من فوق خشبة المسرح ، ولكن ظل الحلم الذى أقض مضجعه ، وداعب جفون لياليه ، يسكُن من الشعب رأسه ، ويُلهب نفسه . .

ومنذ بداءة العهد الجديد والشعب يلقى صعوبات معيشية مختلفة : صعوبات سياسية واجتماعية واقتصادية ومالية .. وكان لابد من كل شىء فى وقت معاً : أن يتهرّب من رقابة الحلفاء ، وأن يتملّص من أقسى شروط معاهدة فرساى ، ولا سيما ما يختص منها بالتعويضات ، وأن يكبح جماح الحركات الشيوعية ، وأن يحصل على اعتمادات من الخارج ، وأن ينظم عالماً جديداً من الحياة المشتركة . وتوالى ممثلو الأحزاب السياسية المنوعة على الحكم ، وكان أشدهم حنكة ولباقة « سترسمان » ذلك البسماركى الأصيل ، الذى لم يفهمه مواطنوه على حقيقته ، وقد حصل من المنتصرين على تسهيلات مدهشة . . ولم يكن بدٌّ للأزمة الاقتصادية ، التى أصابت العالَم ، من أن تشمل بلاداً صناعية كألمانيا

ففى أوائل ١٩٢٩ أصبح أكـــثر من مليونين من المتعطلين ، ليبلغوا فى ١٩٣٣ ستة من الملايين . . .

● وعندئذ ظهر الهر أدولف هتلر . وعلى رغم مانُشر من بحوث عن : أصله ، وتربيته ، وتـكوينه ، وعمله ، وصعوده البطىء إلى منصة الحـكم ، وبرنامجه العملى — على رغم هذا كله — فإن نفسية رجل مثله قد لاتعرف على حقيقتها ، ولا تحلل تحليلا دقيقاً شاملا إلا بعد موته . غير أنه لا نزاع فى حبه العظمة والظهور والفتح ، ففيه من خلال غليوم الثـانى ، ومن نيرون ، ومن لوثر ، ويستحيل فصله عن « شعبه الألمـانى » الذى منحه ثقته بثلاثين مليوناً من الأصوات ، فهو لم يصل إلى منصة الحكم عفواً . . . ولمـا رأى الرئيس هندنبرج ، وقد طعن فى السن ، بلاده على وشك الانهيار فى ٣٠ ينـاير سنة ١٩٣٣ جعل من هتلر مستشاراً لحكومة الرايخ ، موصياً إياه ، على مايظهر ، بأن يجعل شعاره « كل ماكان ألمـانياً يجب أن يعود ألمـانياً » ، وكذلك أصبح ، بعـد موت هندنبرج ، حاكم ألمـانيا المفرد المطلق ، فاعتمد على

ثالوثه الشيطانى : جورنج ، وهيس ، وجوبلز ، الذى انضم إليه بعد ذلك فون ربنتروب . فرسم هتلر برنامجه فى كتاب « كفاحى » بقوة غير عادية ، وصرامة غير مألوفة .

ففى الداخل كان العمل يجرى على تركيز كل السلطات فى أيدى المستشار الجديد ، وإضعاف ، بل وإلغاء المعارضة التى بدت فى الانتخابات الأولى بأربعة عشر مليون صوت (ستة ملايين من الشيوعيين ، وثمانية ملايين من الاشتراكيين الديموقراطيين) . . . وبدأ عهد إرهاب حقيق منظم ضد هؤلاء المعارضين ، وضد اليهود خاصة ، لأن الكاثوليك والبروتستانت سيأتى دورهم ، مما يعيد إلى الذهن أشنع عهود الإرهاب فى أبشع الثورات . . فكلف البوليس السياسى « الجستابو » بتصفية شاملة ، بدأها هتلر بنفسه فى أركان حربه ، فيما اشتهر باسم « حمام الدم » . . . ثم إتمام الوحدة الألمانية بالقضاء على القوميات الخاصة ، واستغراق الرشستاغ ، بحيث لا يدعى للانعقاد إلا من حين إلى حين ، ليضفر أكاليل الزهور للوطنية الاشتراكية ، ويدعم هذا كله

بالتربية ، والدعاية ، لتأسيس شبه دين للدولة .

ولـكى يحـاربوا البطالة والفاقة أسسوا « إسعافات الشتاء » و « مصلحة العمل » و « جبهة العمل » بحيث اختفت قبل الحرب البطالة تماما أو كادت ، وشجعوا التناسل بكافة الوسائل المبتـكرة .

ولـكى يتغلبوا على عدم الحصول على الاعتمادات المالية الأجنبية ، وصعوبات المبادلات التجارية ، استغلت ألمـانيا ، إلى أقصى حد ، مواردها الزراعية والمنجمية والصناعية ، وضاعفت المنتجات التى تحل محل الواردات الخارجية ، وفرضت أقصى حدود الاقتصاد ، وكـل أنواع التقشف والحـرمان ، لتعيش مكـتفية ، قدر الطاقة ، بنفسها . . .

● وإلى جانب هذا : الأمل الأعلى ، والفكـر الأسمى عندهم ، وهو الجيش ، الذى كان منذ معاهدة فرساى فى الظلمات ، قد استعد لـكافة جهود النهوض ، وأعيد تنظيمه كله ، وعمل على تجهيزه بأسلحة هائلة من أحدث الأنواع ، حتى يـكون ، إذا ماحان الحين ، كفيلا بتحطيم كل مقاومة . .

● ولما أصبحت ألمانيا، بنظمها الداخلية، قوة مهيبة الجانب، بدأت تتكلم فى الخارج بصوت أشد ارتفاعا، وتعمل بقوة أشد بأساً، وساعدها على ذلك ضعف الحلفاء، فزعزعت قوائم معاهدة فرساى. . ولما تسلم هتلر صولجان هندنبرج، كان قد سبق له التخلص من التعويضات، واحتلال منطقة الرين. فجمع الخبث مع العنف، وذهب يهدم الأركان الأرضية والحربية من تلك المعاهدة، ويضاعف أدلة القوة التى تزداد كل يوم جرأة. . واتخذ من عدم الاعتراف لألمانيا بالمساواة فى الحقوق حجة ليترك عصبة الامم بشكل رنان. وفى العام التالى أراد وضع يده على النمسا، لولا إرسال الفرق الايطالية إلى ممر برنر، ولكنه لم يلبث فى سنة ١٩٣٥ أن انتقم لنفسه، إذ خرج فائزاً من استفتاء "السار" على فرنسا، فضمه إليه، ثم حطم «جبهة ستريزا» بأن حبذ غزو موسولينى للحبشة، وقام بالمفاوضات التى أدت إلى «محور برلين — روما». . وأخيراً فى ١٧ مارس سنة ١٩٣٦، ذلك التاريخ المنحوس فى حياة

فرنسا، عاد إلى احتلال " الرين " عسكرياً، دون أن تتحرك فرنسا بأكثر من تصريحات شفوية سخيفة . . وشجع هذا التراخي الفوهرر على الإسراع بضرباته المتتالية .

ففي سنة ١٩٣٨ الحق النمسا بالرايخ، ثم هدد تشيكوسلوفاكيا، وشهد استسلام الحلفاء في ميونخ . .

وفي سنة ١٩٣٩ ضم تشيكوسلوفاكيا و " عمل " فعلا، وهاجم بولونيا، دون إعلان حرب، هجوماً تقشعر منه الأبدان، حيث ظهر أنه كان يعد له العدة منذ سنوات، «مما سيأتي تفصيله في مكانه من هذه الكتب» . . وكان ذلك غاية التحدي والاستهتار بالديمقراطيات، وكان آخر سوط من النار ضربت به أوروبا على وجهها . . .

فنشبت الحرب العالمية الثانية . .

وهي الحرب التي نعرض هنا وثائقها .



٣ أندريه موروا :
لماذا كانت فرنسا وانجلترا غير مستعدتين للحرب ؟

● فى يوم من أواخر ١٩٣٥ كنت أتنـاول الغداء فى لندن ، عند اللادى لسلى مع ونستون تشرشل ، وهو ابن اخت صاحبة الدعوة . وبعد الغداء أخـذ بذراعى وانتحى بى فى صالون صغير ، وقال لى لجـأة :

— والآن ، يامسيو موروا ، كفى كتابة روايات ، وكفى كتابة تاريخ اشخاص .. كفى ! ..

فنظرت إليه بشىء من القلق ، فمضى يقول :

— لم يعد يجوز لك أن تكتب إلا مقالا فى اليوم . . . مقالا واحداً ، تكرره كل يوم . . . مقالا تقول فيه ، تحت مختلف الأشكال المنوعة التى يمكن لخيـــالك ابتكارها .. تقول شيئاً واحداً ، هو : ان الطيران الفرنسى ، الذى كان الأول فى العـالم ، يتقهقر الآن إلى الدرجة

الرابعة ، أو الخامسة ... وأن الطيران الألمانى ، الذى كان لا وجود له ، يتقدم الآن إلى الدرجة الأولى من طيران العالم .. هذا هو واجبك ، ولا شىء سواه .. فإذا صحت بهذه الحقائق فى فرنسا ، وإذا أصغت إليك فرنسا ، فانك تكون قد أديت عملا أعظم شأناً ، وأجل أثراً من وصف غراميات امرأة ، أو مطامع رجل ...

فأجبته بأننى لست ، لسوء الحظ ، خبيراً فى شئون الطيران ، ولا سلطة لى على الكلام فى موضوعه ، وأنه مامن أحد يستمع إلىّ إذا فعلت ، وأننى - على رغم نصائحه - سأمضى فى كتابة قصصى عن النساء والرجال ...

فقال لى بصوته القوى الساخر :

ـــ ستكون مخطئاً .. فإن الخطر الذى سيتمخض عنه الطيران الألمانى هو الشىء الوحيد الذى يجب أن يهمّ كل فرنسى ... فقد يكون من ورائه مصرع بلادكم . أما الثقافة ، وأما الأدب ، فلا بأس بهما يامسيو موروا .. بيد أن الثقافة بغير القوة لاتلبث أن تكون ثقـــافة ميتة لاحياة فيها ..

هذا ماقاله لى مستر ونستون تشرشل .. ولم أكتب المقالات التى طلبها إلىّ .. وإنى اليوم لنادم على ذلك أشد النـــدم . .

على أن هذا الحديث قد أثّر فى نفسى كثيراً ، فظل القلق يلازمنى . فكثيراً ما تحريت حالة طــيراننا من الرجال المختصين .. فكانت ردودهم لاتطمئننى ، وأحياناً تزعجنى . كانت الطائرات قديمة ، والطيارون قليلين .

● وفى سنة ١٩٣٦ إزدادت الحالة سوءاً .. فالعمال شرعوا يضربون ويحتلون المصانع ، والحكومة عاجزة ، ودولاب الروتين سار ببطء .. كل هذا جعل الإنتاج الفرنسى عدماً .

وفى خلال سنة ١٩٣٧ نزل عــدد الطائرات ، التى تخرجها المصانع الفرنسية ، إلى رقم لايكاد يتصوره عقل ، وهو ٣٧ طائرة شهرياً ، فى حين أن الإنتاج الألمانى يزيد على ١٠٠٠ طائرة فى الشهر ! ..

وفى الوقت الذى كانت الأحقاد تسمم ، فى فرنسا ، علاقات العمال بأرباب الصناعات ، كانت كل القوى فى ألمــانيا محشودة لحرب الثأر التى تتوقعها الحكومة

الألمانية وتتمناها ؛ ولم تكن قوة ألمانيا خافية على سفراء انجلترا وفرنسا . فقد كانوا واثقين من أنه لاسبيل إلى الخلاص إلا بتسليح هائل ، أو تفاهم مطلق . ولم يكن التفاهم ممكناً مع ألمانيا المتحفزة المتفجرة كالديناميت . . مع ألمانيا التى تهزأ بالأساليب الدبلوماسية الناعمة ، وتحرير المذكرات ، وإلقاء الخطب . . . بدل صنع الطائرات والدبابات . . .

● ولعل الشعبين : الفرنسى ، والإنجليزى ، كانا يدركان ماعليه بلادهما من ضعف التسليح . لذلك نفرا من فكرة الحرب ، عند مالاح شبحها فى سنة ١٩٣٨ ، قبيل "ميونخ" ، وقد سخط الرأى العام الأمريكى يومئذ على تشمبرلين ودلادييه ، لأن الولايات المتحدة لم تكن على علم بالفرق الكبير بين المعسكرين . . فأخطأت الحكم على نفسية أهالى باريس ولندن ، الذين رأوا أنفسهم محرومين من المخابىء ، وقناعات الغاز ، والمدافع المضادة للطائرات ، فى حين كان الطابور الخامس ينشر بينهم الدعاية الألمانية ، عن قنابل وزنها ألف كيلو ، تكفى أنفاسها لتدمير

أحياء بأسرها ، وعن الغاز السام الذى يسد منافذ المدن !.

فرأينا الرجال — الذين كانوا شجعاناً فى نضالهم فى الصف الأول ضد عدو مثل الألمان سنة ١٩١٤ — قد جزعوا وجبنوا من حرب المؤخرة ، التى سيذهب فيها نساؤهم وأولادهم ضحايا . . وهكذا رأت نيويورك العار فى اتفاق " ميونخ " الذى رحبت به الجماهير فى باريس ولندن ترحيباً رائعاً . . واحتفل بذلك التسليم الدبلوماسى على أنه انتصار !.

ولقد لقيت المستر نيفل تشمبرلين ، يومئذ فى باريس وذكرت القدر الذى جعل من هذا الرجل الشريف .. — الذى تربى فى برمنجهام وصار عمدتها — رئيساً للوزارة البريطانية، ولم يكن قد تعوّد إلا معاملة أرباب الأعمال الإنجليز الشرفاء مثله ، فإذا به يفاجأ بشخصية عجيبة لايتصورها عقله ، هى شخصية هتلر الذى لايعترف بواجبات إلا نحو ألمانيا ، ولا بتعهدات يقطعها لشعب أجنبى إلا إذا كانت لنفع الشعب الألمانى .. وبعد ذلك تكون قصاصة ورق !..

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، أى بعد شهرين من اجتماعه بالفوهرر ، اجتمعنا بالمستر تشمبرلين فى وزارة الخارجية الفرنسية ، ذات مساء ، فوصف لنا استقبال برخستجادن ! قال له هتلر : « أتريد أن نتكلم على انفراد ، أم بحضرة رفقائك ؟ » فقال له تشمبرلين : « على انفـــراد » . . . وعندئذ أخذنى هتلر (مع المترجم المستر شميدت) إلى غرفته الخاصة ، وكانت حجرة صغيرة ، أثاثها سرير من حديد ، وعلى الجدار لوحة زيتية واحدة ، جميلة جداً ، من متحف ميونخ ، يغيرونها من حين إلى حين . وقد دهش المستر تشمبرلين من سيل الكلام المتدفق من فم العاهل الألمانى ، الذى لم يترك له مجالاً لقول . .

ولما وصلت إلى برخستجادن للقاء الثانى ، استقبلت بأقوال هى من الشدة والعنف ، بحيث لم ألبث حتى بدت لى استحالة الاستمرار فى حديث بهذه اللهجة . . . وكان فى كل دقيقتين (طبقاً لعملية إخراج تمثيلى محضّرة طبعاً) يدخل ضابط ويقدم برقية إلى الفوهرر ، فيصيح هتلر : « وألمـــانيان آخران قتلهما التشيك ! . . ان

هذا الدم المسفوك كله سيثأر له . . وسيلق التشيك جزاءهم وفاقا ! »

وكانت حدة « الفوهرر » آخذة فى الزيادة عند ما قلت للمترجم إن من الخير انهاء هذا اللقاء ، وأن أعود إلى فندق . . وكان الفندق فى الضفة الاخرى من نهر الرين . وبينا كنت انسحب كان ظل هتلر يتبعنى بضجيجه وعجيجه . ثم سكت فجأة ، وتغيرت معالم وجهه بسرعة خارقة للعادة ، ونظر إلى النهر الجارى تحت أقدامنا ، وهمس بصوت رقيق ، يكاد يكون حنوناً : « عفوا ياسيدى رئيس الوزارة ! . . يسرنى أن تشهد هذا المنظر الرائع . . ولو أن الضباب كاد يحجبه . . . » ! . وتالله لم ألقَ فى حياتى قط مخلوقا ينتقل هكذا بغتة من غضبة الوحش الضارى الى تأثر الشاعر الرقيق ! . .

وظل تشمبرلين يحمل بقية حياته أثراً أليماً من لقاء هتلر ، فلا يكاد يذكر اسمه أمامه حتى تنقبض أساريره ، كالطفل الذى جرعوه شربة زيت ! . . لقد كان هذا النبيل يرى من واجبه انقاذ السلام . وشجعه على

ذلك مالا عديد له من الرسائل التى تلقاها من الرجال والنساء ، من الانجليز والفرنسيين . فان ألوف القرويات الفرنسيات كتبن اليه يشكرنه ، لأنه حفظ بلادهن من الحرب ، وبيوتهن من القنابل ، وأولادهن من الموت .

وقد نسجت له الفلاحات الفرنسيات العجائز « كوفيات » من الصوف ، وكتبن اليه بأحرف كبيرة مرتعشة : « انها ليتدثر بها من البرد فى طائرته » !

وهذا كله قد أثر أشد التأثير فى مسز تشمبرلين ، السيدة الرقيقة الحنون ، التى شجعت قرينها على المضى فى دعوته السلمية .

● غير ان هذا السبيل ، منذ " ميونخ " ، قد صار — فى عين الشعب الانجليزى — سبيلا مرذولا ، فقد « بلع » الرأى العام البريطانى " ميونخ " لعدم الاستعداد الحربى والهوائى . ولكنه وجد الدواء مراً مرارةً لاتطاق . . ووجد عقد التنازل قليل الكرامة . فصمم من يومها على بذل التضحيات اللازمة لكيلا يتعرض لمثل هذه المهانة .

وفى يناير سنة ١٩٣٩ كنت أقوم بجولة لإلقاء

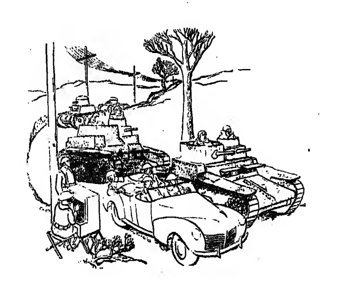
محاضرات فى بريطانيا العظمى ، ساقتنى إلى جميع أنحاء البلاد ، فرأيت الرأى العام قد سبق حكومته فى الحزم والعزم والتصميم على التجنيد الإجبارى . وكان كل من لقيت ، من إنجليز وإنجليزيات — من جميع الطبقات — يقولون لى : « لايجوز أن يُسمح لهذا الرجل ، المدعو هتلر ، أن يسود أوروبا . فلابد لنا من جيش كبير وطيران قوى »

ولما عدت إلى باريس ، وأعلنت أن التجنيد الإجبارى فى انجلترا سيقرر فى شهر مارس ، عدنى الناس مجنوناً ، لأن ذلك يخالف التقاليد البريطانية العريقة فى القدم . ولكن تلك الخدمة تقررت فعلا فى مارس سنة ١٩٣٩

لقد صار رئيس الوزارة البريطانية ، ذلك الحَمَل الوديع ، أشد الناس استنكاراً لأعمال هتلر ، وسخطاً عليه بعد دخول الجيوش الألمانية مدينة براغ ، خلافا لكل ماوعد به هتلر من عدم ضم غير الألمان . ولم يتردد فى أن يعِدَ بولونيا ، وهو فى تأثره هذا ، بضمانة سلامتها . وكنت يومئذ فى أمريكا ، فقلت فى الحال لنفسى : « انها الحرب » ، لأنه كان من المؤكد — وألمانيا تستمر فى

سياسة التوسع فتهاجم بولونيا ـ ان انجلترا ستكون وفية لتعهدها ، كما كانت دائما فى تاريخها .

وكان دخولها الفجائى هذا ، فى سياسة التعاون الأوربى ، مما يقربها حتماً إلى فرنسا . وجاءت فعلا مظاهرة ١٤ يوليو رمزاً لهذا الوفاق المشهود، الذى لم تر له باريس من قبل مثيلا .



٣ أندريه موروا :
لماذا ضاعت علينا الاشهر الثمانية الاولى من الحرب ؟

● فى أوائل سنة ١٩٣٩ ، بعد قليل من وصول الفرق الإنجليزية الأخيرة إلى فرنسا ، تلقيت من مجلس الجيش البريطانى دعوة إلى مركز القيادة العامة بصفة « شاهد عيان فرنسى رسمى » . وكان العمل ، الذى أتولاه ، يقضى بأن أتتبع العمليات ، وربط الصلات بين الفرق البريطانية والأهالى الفرنسيين ، وذلك بكافة السبل ، كالمقالات والمحاضرات والإذاعات .

وقد سبق لى العمل أربع سنوات الحرب الماضية ، كضابط اتصال ملحق بهذا الجيش البريطانى نفسه . واحتفظت لرفقائى ، الإنجليز والاسكتلنديين ، بأطيب الذكريات ، وكتبت عنهم كتابى الأول . لذلك أغرانى نداؤهم ، ولبّيته متحمساً . ووافق عليه رؤسائى فى الجيش ، فذهبت لتقديم نفسى إلى القائد العام الجنرال جورت ،

غرفة صغيرة بسيطة، خالية من الأثاث، إلا من لوح كبير من الخشب على عاتقين، هى مكتب اللورد جورت. بساطة متعمدة. فمن رأى اللورد أن القائد يجب أن يعيش كرجاله. وكان الحديث سـهلا سريعاً، عن مشروعات هتلر، فقال ذلك القائد البعيد النظر:

— هل يهاجم من البلجيك؟.. انى أعتقد ذلك، لأنها العملية الوحيدة الممكنة.. غير أنى لا أرى كيف يستطيع هتلر الهجوم فى هذا الشتاء فى وحل «الفلاندر» هذه وطميها، فاذا كان علينا الانتظار بضعة أشهر أخرى، بغير عراك، فانى أخشى على رجالنا الضجر.. إنك لاتتصور الدخول، منذ الرابعة مساء، فى «زنزانة» رطبة مظلمة لاضوء فيها غير نور شمعة...

— ولكننا فى سنة ١٩١٤ كنا نقضى أيامنا ياسيدى فى المخابىء والخنادق..

— كان ذلك شيئاً آخر.. كان أمامنا عدو تولى أن يشغلنا به.. أما هنا فليس أمامى إلا البلجيك، البلد المحايد... فليس من السهل والحالة هذه المحافظة

على روح الحـــرب فى نفوس الجنود . . .

وفى اليوم التالى قمنا بزيارة خطوطنا الأولى، التى قال اللورد جورت عنها إنه ليس أمامها إلا الحواجز الجمركية، والحراس البلجيكيون، ولـكنها هى التى قد تصبح، بين عشية وضحاها، ساحة المعركة الـكبرى إذا ماغزا الألمـان بلجيكا... فـكدت أصعق من ضعفها!..

● لقد طالمـا سمعت أن خط ماجينو يقف عند حدود «مونميـدى»، فزعمت، بسذاجة، أنه ممتد على الحدود البلجيكية بحصون أقل قوة، وإن كانت حصينة طبعاً.. ولـكننى أصبت بأعظم الصدمات فى حياتى، وأشدها إيلاما، عند مارأيت حبلا واهياً، وفاصلا وهمياً على بعض هذه الحدود، هو كل ماأُعِدّ ليحول بيننا وبين الغزو، وهو كل مايحمينا من الانـكسار!!!

وشهدت الجنود الإنجليز يعملون فى حفر الخنادق، فى وحل الفلاندر الخـائن الذى تغوص فيه الأقدام، فلا يكادون يحفرون حتى تتصاعد إليهم المياه.. لقد أدوا معجزات باهرة لتصريف مياه لاتنقطع عن وجه

الأرض . . ولما شهد هذه المحنة المراسلون الحربيون الإنجليز ، وأكثرهم حارب مثلى فى سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ، قالوا :

— إذا كان هـذا هو خطنا ، فاللهم ارحمنا ! . .
فإن وسائل الهجوم أقوى مما كانت فى الحرب الماضية عشر مرات ، ووسائل الدفاع أشد ضعفاً عشر مرات !!

زد على هذا ما لقيه هؤلاء الصحفيون الشرفاء من تعنت الرقابة ، وقسوتها التى أرغمتهم على إخفاء قلقهم ، بل على تطمين الجمهور !

وكان الضباط الذين يحتلون الخط يحاولون أن يكونوا أقل تشاؤما ، وقد أظهرنى أحدهم على حفرة تافهة حفرها رجاله ، بشق الأنفس ، قائلاً بلهجة المعتذر :

— بداهةً أن هذه الحفرة لاتعوق دبابة ، ولكن أمام بطاريتى غابة تحجبها ، فيمكن أن نؤمل أن الدبابات أو السيارات المصفحة لاتأتى من هذه الجهة ! . .

هذا فى حين قامت فرق المهندسين الحربيين من بريطانيين وفرنسيين ، وراء الخط الأول ببناء عوائق من

الأسمنت المسلح ، فى مختلف الساحات ، وقــد جىء باخصائيين ، من انجلترا ، كانوا يمزجون الرمال بالصلصال . . وأخفيت كل هذه الاستحكامات بعناية ، وكانت القيادة العامة مطمئنة لها ، حتى أن الجنرال شوفينو ، وهو أستاذ فى الكلية الحربية ، نشر كتاباً تخاطفته الأيدى فى الجيش الفرنسى عنوانه : « هل الغزو ممكن ؟ » استبعد فيه الغزو وإمكان نجاحه ، بفضل ما وراء الخطوط من عوائق الاسمنت . ونسى أن بالإمكان مهاجمة جزء صغير منها ، ثم تطويق الخط كله ، بدل مهاجمته كله ! . . .

- وكان الرأى السائد حينئذ أن خط ماجينو لايمكن أن يقتحم ، وأن ألمانيا لن تتحرك فى هذا الصيف ، وأن الوقت فى خدمتنا ، وأننا فى سنة ١٩٤١ سيكون لنا سلطان الجو ، وأننا فى سنة ١٩٤٢ سيكون لنا من المدفعية الثقيلة والدبابات والسيارات المصفحة ، مايكفى لمهاجمة خط سيجفريد . . .
- لقد قال هتلر : « سأفسدنّ عليهم حربهم » . .
- وقد وُفِّق إلى ذلك بوقوفه طول الشتاء بغير حراك . .

فان ذلك الجمود قد أضعف « روح الحرب » . . حتى المناورات بالدبابات حِيل بين جنودنا وبينها ، خشية أن تفسد الزرع والضرع ! .

ولم يكن ثمة من يفكر فى خطر هجوم العدو . . وكان الناس جميعاً لايتحدثون فى صفوف الجيش إلا عن السآمة والضجر ! . .

● وكان رجالنا أول الحرب ، تنقصهم : الأغطية ، والصديريات ، والجوارب . فتأسست جماعة « الطرود للجيش » ثم « السجائر للجيش » ، فلم يلبث أن تلقى الجنود وابلا من اللفافات والهدايا ، حتى أن جندياً إنجليزياً قال لى بلهجة الجد : « إننى مهما أسرفت فلست أستطيع تدخين مائتى سيجارة فى اليوم ! . . »

وقامت النخبة المختارة ، من أهل باريس ولندن ، بتأسيس جماعات خيرية أغراضها : « المطالعة للجيش » « الراديو للجيش » « الترفيه للجيش » « الرياضة للجيش » « المسرح للجيش » ؛ حتى أن سيدة ذكية لم يرقها هذا السرف والترف ، فأشارت إلى أنها تتمنى أن لو أنشأوا

أيضاً «الحرب للجيش» !.. وكنا نرى الممثلات والمغنيات والراقصات يتجولن بين الصفوف، فى المركبات الحربية التى يحرسها الضباط، ويحفون بها.. وكان موريس شيفالييه يغنى بالفرنسية أغانيه المرحة: كأغنية «فالنتين» وبالإنجليزية كأغنية «المطر يتساقط» !. وبعد ذلك يتزاحم عليه الجند ليوقع لهم باسمه تذكاراً !...

وكان ذلك كله ظريفاً جداً، لولا أنه لم يكن هناك استعداد لصد الهجوم الألمانى.

● لم تعرف البلاد فى أشد الساعات خطراً، فى تاريخها، كيف تكتسب الوقت وتنتفع به لإصلاح بعض أخطائها القديمة من الإهمال والتراخى، فتتمم حصونها وتعلم رجالها.

وكان الجنود يبددون السآمة، إذا ما أرخى الليل سدوله، بكتابة الرسائل الطويلة إلى الزوجات والحبيبات، حتى عجز الضباط المراقبون عن قراءتها، لأنها أكداس مكدسة، لا ينتهى عددها، ولا يحد طولها، فكان الاطلاع على الأسرار البيتية والعاطفية هو عمل ضباط خلقوا للتفكير فى مستقبل بلادهم، وعلى صفاتهم الحربية

والفكرية يتوقف مصير العالم وحرياته . . حقاً لقد أفسد هتلر علينا حربنا !! . . لقد كان كل شيء يدعو إلى الجزع حولنا ، فإن الألمان أكثر عدداً وأقوى عدة . فإذا طغوا ، بفرقهم المصفحة ، فإن أشجع الجنود لا يلقون هذا بصدورهم ، بل بمدافعهم المقاومة للدبابات .

أما إذا لم يكن لديهم مدافع فماذا يصنعون ؟

● وإذا كانت المصانع الفرنسية لا تعمل إلا بضع ساعات فى النهار كما كانت فى وقت السلم !

● وإذا كان عدد الصناع الاخصائيين ، فى مصنع للدبابات وسيارات النقل ، قد خفض فى أول الحرب من ثمانية آلاف إلى ستة ، وأرسل الباقون إلى الصفوف للهو والترفيه ، وسماع الراديو ، وكتابة الرسائل !

● وإذا كانت فرنسا بدل أن تلجأ ، من أول الأمر ، إلى المصانع الأمريكية الكبرى ، المختصة بتسليح الجيوش ، فتوصى لديها بما يلزم جيشها ظناً منها أن الأوفر لها صنع ذلك فى مصانعها ، فهو يكلفها أقل . . .

● أجل . . إذا كانت فرنسا قد فعلت ذلك للتوفير فقد

علمت الآن أنه كلفها النصر .. وأصابها بالهزيمة ! ..

ولما بدأ الألمان يقذفون الرجال بالبارشوت تنبه الفرنسيون إلى ضرورة تسليح جميع الضباط بالمسدسات، ولكن لم يكن للمسدسات أثر في فرنسا .. فقد ذهبت أنا، شخصياً، عند باعة الأسلحة في مدن عديدة، بما فيها باريس، دون أن أستطيع شراء مسدس ! .. ففي أول يونيه رأوا أن يوصوا عليها في إيطاليا !!! عند ما كان قد سبق السيف العذل ! ..

● زد على هذا أن وقوف روسيا في صف الألمان قد حمل العمال الفرنسيين الشيوعيين، وما أكثرهم، على التواني في العمل، والإبطاء، والإهمال ..

● ولم يكن أصحاب المصانع - مع وقف الأرباح الاستثنائية كلها تقريباً - بأشد تحمساً للعمل من عمالهم !.

ولقد حدث في اكتوبر سنة ١٩٣٩ أن «بول رينو»، — على أنه لم يكن يومئذ إلا وزيراً للمالية — أراد ذات مساء أن يقوم بجولة بعد العشاء في بعض مصانع التسليح بمنطقة باريس .. ولشد ما كانت دهشته إذ وجدها معطلة

مغلقة ! . . كانت لا تعمل ليلا ! ! وفى الصباح التالى ذهب إلى دلادييه فقال له :

— أتعرف أننا ، إذا استمر الحال على هذا المنوال ، خسرنا الحرب ! ؟

وهذه الفكرة التى كانت تبـــدو له ، ولنا جميعاً يومئذ ، بعيدة الاحتمال ، كانت للأسف هى الحقيقة المروعة نفسها .



٤ أندريه موروا :
لماذا عطلت المسائل الشخصية سير الحرب ؟

● إن صفحات التاريخ تفيض بذكر خصومات الزعماء المتنافسين، وأضرارها بسير الحروب وحكم البلاد . . وفى سنة ١٩١٨ سعدت فرنسا بأن وجدت زعيماً قوياً هو كلمنصو . أما فى سنة ١٩٣٩، فعلى الضد من ذلك، ظل خلال الحرب كلها رجلان، هما : ادوار دلادييه، وبول رينو، يتنازعان الحكم، ولا يشفى أحدهما أو كلاهما من داء الخصومة، الذى كان من الأدواء التى أودت بحياة فرنسا .

ان بول رينو هو من أذكى رجالنا السياسيين، ومن أشجعهم . . كان الوحيد الذى أوتى الشجاعة عند هبوط الجنيه الاسترليني ليشير بخفض الفرنك، وبررت الأيام هذا الإجراء . كان الوحيد بين البرلمانيين الذى درس أفكار « دى جول » ـ عند ما كان كولونيل ـ عن الجيش الميكانيكى، وطالب بإنشاء فرق مصفحة قوية .

لقد أدى خدمات مالية جُلّى لبلاده .. ولكن ذلك الذكاء الحاد المهاجم، وهذه الثقة بالنفس إلى حد الأنفة، وهذا الاعتداد بالرأى فى الشئون المالية والاقتصادية والسياسية، كان ذلك كله كفيلا بأن يضايق كثيرين من رجال السياسة، وخاصة دلادييه. وكان دلادييه أستاذاً للتاريخ، فوجد فى تاريخ فرنسا، كما وجد فى قلبه الكريم، أسباباً لحب بلاده حباً جماً. ولكن كان من عيوبه: إحساس قاتم يجعله يحذر زملاءه، وحرمان من الإرادة يبلغ حد العجز .. كان أحياناً يضرب بيده على منضدة المجلس فيؤكد زملاؤه أن الضربة هى ليد من حرير فى قفاز من حديد . . .

ولم يكن رأى دلادييه فى رينو بأحسن من رأى رينو فى دلادييه .. كان يقول عن رينو:

« انه ما إن يتكلم حتى يبدو زهوه وإعجابه بذاته، بحيث لا يسعنى إلا أن أتخيله طاووساً يدور حول نفسه وقد نفش ذيله » ! ..

● إن هذه الظاهرة، التى تبدو صغيرة، هى إحدى

نواحى الفاجعة البشعة التى راحت فرنسا ضحيتها .

● وهكذا بدأت ، فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حرب أعدت لها ألمانيا العدة زمناً مديداً ، ولم تكن انجلترا ولا فرنسا مستعدتين لها على الاطلاق ، وعنيت ألمانيا كل العناية بأن تدع فرنسا وانجلترا تعلنان هما الحرب عليها !.. ويمكن الآن القول بأن تلك الحرب كانت خاسرة بالنسبة لفرنسا منذ اللحظة التى نشبت فيها . . .

● كانت خاسرة لأنه لم يكن لدينا الكفاية من الطائرات ، والكفاية من الدبابات ، والكفاية من المدافع المضادة للطائرات ، والكفاية من المصانع التى تقدم ماينقصنا . . .

● كانت خاسرة لأن حليفتنا لم يكن لديها إلا جيش صغير ، ولا يسعها أن تستغل ، سريعاً ، احتياطيها الذى لا يحد من الرجال ومن المال .

وفى بداية الحديث ، الذى ذكرته فى أول هذا الكتاب ، سألت ونستون تشرشل عن السبب الذى من أجله تقهقرت انجلترا أمام إيطاليا عند تطبيق العقوبات فى حرب الحبشة ، فقال لى :

ــ أفلم تلحظ يوماً ما عادات « الهومار » le homard ؟

فأجبته سلباً . .

فقال : ادرس عادات جرادة البحر هذه ، إذا سنحت لك الفرصة . . فإن هذه الجرادة الضخمة ، فى أوقات مختلفة من حياتها ، تفقد الدرع الذى يحمى ظهرها . . فترى أشجع شجعانها ، تلجأ إلى جحر صخرة ، وتنتظر صابرة حتى يمر الوقت الكافى لينمو لها من جديد درعها . فلا يكاد هذا الدرع يشتد ويتصلب حتى تخرج من جحرها ، وتعود محاربة سيدة البحار . . . وانجلترا ، بأخطاء بعض رجالها ، قد فقدت درعها . . فلا بد لنا من أن ننتظر فى جحرنا ، حتى تنمو درعنا . .

● ولقد شاءت الأقدار ، لسوء الطالع ، أن تخرج فرنسا وانجلترا من جحريهما ، بغير دروع ، لتحاربا عدواً هو أشنع الأعداء .

● لم يعد سراً أذيعه اليوم أن حياة بعض ساستنا الخاصة قد سممت حياتهم العامة ، وإن من الزيف القول بأن الأخلاق الفرنسية ، فى سنة ١٩٣٩ ، كانت منهارة .

فإن ملايين من الأزواج ، كانوا فى فرنسا يحيون حياة بسيطة شريفة .. ولكن لم يكن هذا شأن ثلاثة آلاف شخص فى باريس ، كما قال بيرون : « يزعمون أنهم يسيرون الكون . . لأنهم ينامون فى ساعة متأخرة من الليل »

● وكانوا لا يتصورون أن دسائس العواطف والشهوات قد تبلغ حداً يضع الوطن فى خطر ... ولكنها أثبتت أيضاً أن الرجل الذى يريد أن يحكم ينبغى له ، قبل كل شىء ، أن يحكم نفسه ، ويسيطر على ذات عواطفه . . .

لقد اتخذ دلادييه ، بعد موت زوجته ، من المركيزة « دى . . . » خليلة له . وهى امرأة جميلة ، شقراء ، ناضرة ، رقيقة . ميالة إلى السلطة والجاه ، ومشغوفة ، لسوء الحظ ، بالمذاهب السياسية والاقتصادية ! . . ولكنها تعرف كيف تختفى وتنتحى عن طريق صاحبها ، وكان تأثيرها عليه ، أحياناً ، طيباً . . .

وعلى العكس منها صاحبة بول رينو ، الكونتس « دى بورت » ، فقد كانت امرأة طائشة ، متهوسة ، مفتونة ، جعلت منها الحوادث امرأة خطرة .. فلم يكفها أن صار

بول رينو وزيراً للمالية ، فأرادت منه ، بأى ثمن ، رئيساً للوزارة . فملأت صالونات باريس بالزراية بدلادييه ، وضعف إرادته ، وكسله ، وانحطاط روحه المعنوى . . وانه آن الأوان ليخلفه رينو . . وكانت هذه الأقوال ، بالطبع ، تبلغ دلادييه فى ذات المساء فيزداد لرينو مقتاً . . حتى ساءت علاقتهما بحيث انهما ، وهما فى وزارة حرب واحدة ، لم يعودا يتبادلان كلمة ! . . وكانت تلك الحالة سخيفة بغيضة عادت على البلاد بالويلات . .

أما أنا الذى أعيش فى صفوف الجيش فقد كنت أحب ، إذا ما مررت بباريس ، أن ألقى بول رينو ليطلعنى على الموقف السياسى بطريقته البراقة القاسية . .

وفى ١٩ مارس ، بين جلسة برلمـــانية نهارية وأخرى ليلية ، جاء رينو ، وحده ، يتعشى عندى . . وكان النهار عابساً لوزارة دلادييه . كان البرلمـان ينـكر على الوزارة تباطُؤها فى مسألة فنلندا . . وأصر النواب على جلسة سرية فى العاشرة مساء ، وتوقع رينو سقوط دلادييه ، وحلوله محله . . فصارحته بأنه إذا حدث ذلك

فعليه الاستعانة بدلادييه فى وزارته ، لأنه رجل تحترمه الأحزاب ، فى حين أنه هو بغير حزب . . وسقط فعلا دلادييه ، ودعى رينو لتأليف الوزارة ، كما كان يؤمل . . وقد ألفها بطريقة تدل على انه رجل يعيش بين الأفكار لا بين النـــاس . . حقاً انه قد استعان بدلادييه ، ولكن دلادييه هذا كان قد قَبِلَ مُكرَهاً ، وكان حاقداً ساخطاً . . كان ، فى خبيئة نفسه ، يؤثر أن تتاح له الفرصة فيغرق سفينة الوزارة التى لم يكن عليها بحّاراً ، بل كان بالأحرى سجينها . . .

ولما تقدم رينو إلى البرلمان لم ينل بالجهد الأغلبية إلا بصوت واحد ! ! فالبرلمان لم يكن يحبـه . . . فأرسلت إليه ، من خط القتال ، شبه تهنئة بالرياسة ، قلت له فيهـا كلمة موريس بارس : « فى زمن السلم يمثـل البرلمان البلاد ، أما فى زمن الحرب فهو الجيش . . . »

● وكان رينو ، منذ بداية الحرب ، لا يخفى كراهيته للجنرال جاملان . . كان ينقم منه جموده ، وعدم انتهازه فرصة انشغـال الألمان فى حرب بولونيا لمهاجمة خط

سيجفريد ، وكان جاملان يعتذر عن ذلك بقلة العتاد ، وأنه لا يملك المدفعية الثقيلة ، ولا يريد أن يبدأ الحرب بمعركة « فردان » أخرى ... وكان من رأيه أن فرنسا بلاد قليلة النسل ، قد أصيبت بخسارة فادحة فى أبنائها فى الحرب الماضية ، فلا تتحمل خسائر جديدة فى الرجال . .

● ولم تكن معارضة رئيس الوزارة للقائد العام مجرد اختلاف بين خُلُقين ، بل بين مذهبين فى الحرب . كان جاملان رجل الدفاع والتريث ، وكان رينو رجل الهجوم والتقدم . . كان يقول : « إن القائد الذى يظل على خطة الدفاع يخسر جميع المعارك » . . .

ولما أراد تغيير جاملان عارضه دلادييه ، بصفته وزيراً للحربية ، وهدد بالاستقالة . .

وكان رينو قد أصاب بعض النفوذ بعد الانتصار البحرى فى نارفيك ، لأنه نصير حملة النرويج . . فنالت وزارته هذه فى ٢٠ ابريل الثقة بالاجماع ، وهى التى لم تنل منذ بضعة أيام الأغلبية إلا بصوت واحد .

● وقد بدا لى هذا مطمئناً ، ولكن أحد الشيوخ قال لى

مشفقا . « انك لا تفهم المناورات البرلمانية ! . . إنهم خصوم رينو الذين منحوه هذا الإجماع ، لأن الإجماع غير شخصى ، بل هو وطنى قومى ، فى حـــين أن أغلبية كبيرة تكون فوزاً شخصياً للرجل . . » !

وفى اليوم التالى استقبلنى رينو فى مكتبه بوزارة الخارجية . . وكان ساخطاً ، بقوله :

● — انظر ! . . إن الدبابات لا وجود لها إلا على الورق . . والفوضى ضاربة أطنابهـا ، بحيث ان المدافع الضخمة ، والمدافع الرشاشة ، التى يحتاجها الجيش ، مكدسة فى المخازن . . وللألمان ٢٠٠ فرقة ، وربما ٢٤٠ - وليس لنـا بالكاد إلا ١٠٠ - إن دلادييه قد فرض ضعفـه ووهنه على كل إصلاح وجعل الحكم مستحيلا . .

— ومع ذلك فان دلادييه رجل يحب بلاده !

— أجل ، واعتقد أنه يتمنى انتصار فرنسا ، ولـكنه يتمنى أكثر من ذلك فشلى ! . .

إلى هذا الحـــد كانت قد وصلت الهوة السحيقة بين الرجلـين . .

● وسارت حملة نرويج من سيء إلى أسوأ .. وفى ١٠ مايو ، بينما كنت أدير مفتاح الراديو ، علمت بغزو البلجيك وهولاندا ـ فقد بدأ الهجوم ، ولعل الناس قد ارتاحوا لخلاصهم من ذلك الشك الطويل .. وكان الإيمان يعمر قلوب العامة ، أما الخاصة الواقفون على بواطن الأمور فكانوا متشائمين .. واتخذ الهجوم شكلا مروعاً ، حتى يوم ١٧ مايو ، عند ما أعلن الجنرال جاملان الحكومة بأن طابوراً ألمانياً ميكانيكياً قد اخترق الصفوف إلى « لاون » وليس مسئولا عن باريس حتى ذلك المساء ! !

فحدِّث عما أصاب الوزارة من الذعر ! !

فلم يتردد رينو يومئذ فى طرد جاملان ، الذى عده مسئولا عن الهزيمة ، وتولى وزارة الحرب ، ونقل دلادييه إلى الخارجية . . واستدعى الجنرال فيجان من جيش الشرق .. وفى الوقت نفسه عرض على الماريشال بيتان وكالة الرياسة . فقد كان لاسمه ونفوذه ، لدى الفرنسيين ، وزنهما . وقد زعم رينو أنه ، بدعوته

للماريشال ، يؤيد نفسه لدى الرأى العام ، ويناله قبس من ذلك النفوذ العريق ، ولكنه أخطأ خطأً فاحشاً ، إذ لم ير فى زميله الجديد الشيخ غير اسمه اللامع ، وماضيه المجيد . . ولكنه لم يلبث أن وجد منه قاضياً يناقشه الحساب .

وانتهى النضال الأليم بين رينو ودلاديه فى ٦ يونيه بخروج هذا الأخير من الحكم نهائياً . . هذا الذى كان ملء الأسماع والأبصار قد خرج دون أن تصدر كلمة أسف ، أو عبارة دهش ! . .

● هذه هى بعض المسائل الشخصية الخطيرة التى عطلت مسير الحرب . وقد يقال إن هذا يحدث فى كل زمان ، وإن الغيرة والمطامع هى مشاعر أبدية عالقة بالنفس البشرية ، وإننا فى سنة ١٩١٤ ، على رغم مابين كلمنصو وبوانكاريه من كراهية ، قدكسبنا الحرب . . وهذا حق ، ولكن مع الفارق . . فقد فازت فى سنة١٩١٤ نبالة القلب وكرامة الوطنية على الشهوات الذاتية . ولم يكن بوانكاريه يحب كلمنصو ، ولكنه تعاون معه تعاوناً شريفاً وثيقاً .

وقبل بيتان أن يعمل تحت إمرة فوش . .

أما فرنسا فى سنة ١٩٤٠ فقد كانت أشد ما تكون انقساماً على نفسها ، وكانت الخصومات السياسية من القوة بحيث لم يقف شيء فى وجه الأحقاد الشخصية .

ولم تكن مسائل الأشخاص هى السبب الرئيسى للهزيمة . . فإن هذا السبب قد بسطناه : هو نقص الاستعداد الحربى ، والدبلوماسى ، والصناعى . على أن خصومات الوزراء ، وعدم وجود زعيم عظيم على رأس الدولة ، يفرض الاتحـــاد ، قد حرم الجيش آخر رجاء فى الانتصار .



أندريه موروا :

٥ لماذا نجح الهجوم الألماني بهذه السرعة الخاطفة ؟

● فى أوائل مايو سنة ١٩٤٠ زرت ، فى الجبهة الفرنسية ، الجيش التاسع الذى كان تحت قيادة الجنرال كوراب ، والذى كان قد قُضى عليه بعد بضعة أيام أن يسحق فى سيدان ، تحت دبابات الألمان . .

وكان أركان حرب ذلك الجيش ينزلون فيلاّ صغيرة فى فرفان . وهى قرية عتيقة ، نائمة الطرقات ، مغلقة النوافذ ، ترى الضباط فى ساعات محددة يقصدون مكاتبهم بخطى هادئة كالموظفين . . . وقد ظهرت عليهم دلائل الكبر ، ولحقتهم من دهرهم غبرة . .

وكان الجنرال كوراب على ذكائه رجلا رخواً ، قليل المظهر العسكرى ، لايسمح له كرشه بالصعود إلى السيارة إلا بشق النفس . . وكان حديثه ممتعاً ، ولكنه يدل على روح متجهة إلى الماضى . . فراح يروى لى

كيف أنه فى أيام فاشودة كان مجنداً فى الجزائر ضد انجلترا . ثم كيف تمكن فى مراكش عام ١٩٢٥ من أخذ الثـــائر عبد الكريم . . وكان ذلك الحادث هو ذروة مجـده . .

● ولقد زرت بعد ذلك الفرق فدهشت من قلتها . . وشعرت بأننى اجتاز بلاداً مهجورة . . ولم يسعنى ، والسيارة تقطع بى القرى الخالية من الجند ، إلا أن أفكر فى حالة الغزو . . فما كان أسهل مايجده جيش الأعداء ، إذا مااخترق الحدود ، فى الوصول إلى هذا المكان ! . فماذا نرى أمام مدخل هذه البلدة « فرفان » ؟ ! أسواراً من خشب يستطيع صبى أن يقلبها ، وحفنة من المدفعيين حول مدفع ، وخفيراً ؟ . . فهل كان لذلك أن يقف فى وجه فرقة مصفحة ! . .

● الحق أن قـوى الحلفاء لم تـكن تطابق احتياجات الحرب الجديدة ، كما دلت على ذلك حملة بولونيا ، ولا حتى الاحتياجات الأولية لأية حرب من الحروب . . فإن الاضطرار إلى الاحتفاظ بجبهة واسعة جـداً أدى

بالقيادة إلى مد خطوطها، وتوزيع جهودها، هذا فضلا عن أن خيرة فرقنا كانت على الحدود الألمانية، فلو أن العدو اخترق ذلك الخط لما بقى أمامه إلا نزهة حربية . . سيلقى طبعاً فى طريقه مدناً عدة، ولكن من ذا الذى يدافع عنها ؟ . . وكان الذين يتولون قيادة تلك الأماكن، على قربها من الحدود، من درجة كولونيل وجنرال، شيوخا ظرفاء، أحيلوا إلى المعاش من زمن طويل، ثم استدعوا فى بداية الحرب، ليعهد إليهم بوظائف يعدها الجيش إدارية، ولم يسائل هؤلاء الرجال الفضلاء الذين أغرقتهم أكوام الورق أنفسهم : ماذا يصنعون لو أن دبابات العدو أو الموتوسيكلات المسلحة بالمتراليوز، قد وقفت على أبواب قلعتهم ! . .

وكانت هذه الحالة خطيرة جداً، إذا قدرنا أن سكة الحديد، التى تربط هذه المدن وراء الجبهة، هى خطوط مواصلات جيوشنا . . فان الجيش البريطانى كان يتزود بسكة حديد اميان — آراس — داواى — ليل . . أو إذا لزم الأمر بخط ابفيل (بولونى)، ولكن إذا

قطعت هـذه الخطوط فإن هذا الجيش يجد نفسه قـد انفصل تمام الانفصال عن قواعـده ، فماذا كان يحدث لو أن العدو اخترق الجبهة وقطع المواصلات بين المخازن الحربية ، فى الهافر وشارتر ونانت ، وبين الجيش ؟ . . لاشك أنه بعد أيام معـــدودة سينقصه الزاد ، وتعوزه الذخيرة ، فماذا فعلت القيادة للحيلولة دون هذا الخطر ؟ ماذا فعلت لتقف هجوما حامياً ؟ لاشيء مطلقاً ! . . .

ولقد سمعت ، ذات مساء ، الجنرال جاملان يقول : « إن من يبدأ بالخروج من جحره فى هـــذه الحرب فسيكون عرضة لخطر شديد . . . »

ولعل السياسة هى التى فرضت عليه الخروج من جحره . . فقد رأيت أركان الحرب ، يدرسون بدقة ، منـــذ شهور : « الدخول إلى البلجيك » ويصدرون الأمر بالمسير بعد خمس دقائق من النداء الذى وجهه إلينا ملك البلجيك ، وكان الألمـان يعلمون ، تماماً ، ماذا يحدث فى حالة دخولهم بلجيكا ! . .

ذلك أنه كان قد حدث بالفعل أن طائرة ألمـانية

قد اضطرت إلى النزول فى البلجيك . . وكان بهذه الطائرة بعض ضباط أركان الحرب ، وخطة كاملة لغزو بلجيكا فى تاريخ محدد . وتظاهر الضباط الألمان بمحاولة حرق وثائقهم، وإن كانوا قد حافظوا عليها فعلا من الحريق ! . . وعلى ذلك صدر الأمر إلى جيوشنا بالتقدم إلى الحدود ، وكان الألمان ، من طائرات الاستطلاع ، يلاحظون ويسجلون ، ولعلهم كانوا مندهشين ومبهورين من نجاح حيلتهم العتيقة المكشوفة ! . . .

ومع ذلك لم يفت هذا كله قائداً محنكا هو الجنرال « ماك فرلان » الذى يعرف الجيش الألمانى حق المعرفة ، وهو ، من دون الإنجليز جميعاً ، كان لايخفى من تلك الحملة تشاؤمه ، وأثبتت الأيام بُعد نظره ، واعتقاده أن الألمان سيهاجمون هولندا . . وكان يقول : « ان الفرَق المائة والعشر باقية فى منطقة اكس لاشابل ، وليس بقاؤها هناك لغير سبب » . .

وفى ١١ مايو دخلتُ الحدود البلجيكية ، وراء الطوابير الإنجليزية ، وكانت النساء على أبواب بيوتهن

الجميلة ، وأذرعهن مثقلة بالزهور ينثرنهـا على الجنود ، وقد استخف هذا المشهد الرائع صحفيـاً بريطانياً صادقاً من الذين استقبلوا فى هذا الموكب كالظافرين ، فطفق يصفه لجريدته ، فتلقى تلغرافاً منها يقول : « إبعث إلينا من فضلك بزهور أقل وحقائق أكثر » ! . . .

ولم يكد يبدأ بذلك حتى كانت الزهور فعـلا قد اختفت ، إذ سحقتها المعارك المروعة الوحشية

وكانت النساء فى القرى البلجيكية مازلن واقفات بأبواب منازلهن ، ولـكنهن فى هـذه المرة كنّ يتطلعن إلى الجـو بقلق وجزع .. فقد بدأت الطائرات تحلق وتلقى قنابلها ، وترعب الأهلين . . واكتشفنا مؤخراً أن فى كل قرية عضواً من هيئة الطابور الخامس ، ألمـانياً كان أو بلجيكياً وكلّ ، عند إلقاء القنابل الأولى ، بأن يقول للسكان :

● — سافروا حالا .. ارحلوا .. وأمامكم من الوقت فسحة ! . . فإن القرية لاتلبث أن تدمر ، والجستابو يتتبع الطيارين .. وأنتم تعرفون ماذا فعل الجستابو بالبولونيين ! ..

فأصغى إليهم النـاس ، وأصاب الرعب المـــدن

والقرى . . وسافر أهل كل قرية حتى عمدتها ، وقسيسها ، وموظفوها . . وغصت الطرق باللاجئين . . فكان المنظر خارقاً للعادة . . ترى أولا سيارات الأغنياء يقودها السائقون فى أيديهم القفازات ، وعلى رءوسهم قلانس جديدة . . ثم سيارات الطبقة المتوسطة يقودها أصحابها ، وقد ربطوا على سقوفها « مراتب » الفراش ، ثم مركبات الخيل تحمل عائلات بأسرها ، ثم جيوشاً من راكبي الدراجات يحملون « البطانيات » وبعض الزاد . . ثم يتلوها مواكب الراجلين التى يرثى لها . . فلاشىء أشد عدوى من الفرار . . فما إن تصل طلائع الهاربين إلى الحدود الفرنسية ، من بلد إلى بلد ، حتى يتضاعف عدد الزاحفين ، فما كانت طوابيرنا المصفحة التى وصلت أول يوم ، فى نظام تام جميل ، لتستطيع فى اليوم التالى أن تسير على هذه الجثث الآدمية التى تعج منها الطرق باللحم والدم . . فاستحالت كل حركة . ولم يكن الناس فى هذه الحرب أجبن منهم فى الحرب الماضية ، التى لم يحدث فيها مثل هذا الهجوم . وعجز الدفاع . . وكان

للراديو أثره فى هذه الفوضى ، فقد ظل يذيع أخباراً مزعجة فى الفلاحين ، مما لم يكن له أثر فى سنة ١٩١٤ ، وكان للطيران الألمانى الأثر الثانى ، لأنه كان متفوقاً إلى درجة ظن معها أولئك المساكين أن ليس هناك من يدافع عنهم .

وكنت مع أركان حرب الجيش البريطـــانى عنـد ماعلم هؤلاء بنكبة سيدان ، إذ اخترق الألمـان خط الدفاع ، وهزموا جيش كوراب . وظل زملائى الإنجليز يومين ، رقة منهم وحياء ، لا يحدثوننى عن ذلك . . وظلت البلاغات الرسمية حذرة غامضة ، وكان رفقائى الإنجليز يخفون عنى ماصدر من أوامر التقهقر . . ثم انتهيت بأن عرفت كل شىء . . .

● وكان اختراق خط الدفاع تاماً ، وأسبابه لها العجب العجاب . . فان عوامل ثلاثة قـد اجتمعت على ذلك ، هى : عامل الهجوم بكتلة هائلة ، وعامل المفاجأة التامة ، وعامل الرعب والإرهاب . . إن ألوف الدبابات المصفحة من قاذفات اللهب ، ومن الطائرات ذات

الصفافير التى تصم الآذان ، قد انهالت على جيش كوراب . . . وقلّ أن يقف أشجع الشجعان أمام مثل هذا التهديد المفاجىء الجديد ، الذى لم يكن مستعداً له . . وكانت الدبابات التى صنعتها مصانع سكودا التشيكوسلوفاكية ، ذات جوانب أقوى من أن تخترقها مدافعنا . . هذا فضلا عما حدث من أن الجواسيس ورجال البارشوت كانوا قد أجهزوا على حرس الكبارى ، التى لم تنسف فى الوقت المناسب ، لتعطل الزحف وتقف الهجوم . وكان للطابور الخامس القدح المعلى فى مساعدة جيش الألمان حتى تقدمت وحداته المصفحة بسرعة فاقت كل مؤمل ، وأحيط جيش كوراب بهذه المفاجأة الصاعقة .

● ولقد تم عمل من أعظم الأعمال شجاعة ، فى هذه الحرب ، على نهر الموز . . فإن الطيارين ، الفرنسيين والإنجليز ، قد تلقوا أمراً بأن يدمروا ، بأى ثمن ، بعض الكبارى . . فانبرى سربان ، سرب من الفرنسيين وآخر من الإنجليز ، لهذه التضحية . . ولست أعرف

مقدار خسارة الفرنسيين ، ولكنى أعرف أنه لم تعد إلا أربع طائرات من ستين طائرة . .

● وهذا المثل وألف مَثَل سواه ، يدل على أن الشجاعة والبسالة المنقطعتى النظير لم تنقصا جيوش الحلفاء . . وليس صحيحاً أن الجنود كانوا فى حالة معنوية سيئة . . . ولكن الجراثيم التى تهاجم جسداً سليماً لاتنال منه ماتناله من جسد عليل أضناه العناء والقلق والضعف العام ، كالذى أصاب جيوشنا من الهزائم الأولى . . فان الهزيمة تجر الهزيمة ، كما يسوق النصر نصراً سواه . .

● وحدِّث ولا حرج عن الأشاعات التى تتداولها الألسن من بيت إلى بيت ، ومن حانوت إلى حانوت ، إلى حد تجرف معها ألوف الرجال والنساء والأولاد فيهاجرون ، وإلى حد أن القواد تختلط عليهم المعلومات ، فيعطون أمراً بالانسحاب إلى جهة لا يلبث أن يقع فيها جنودهم أسرى ...

ولقد لعب رجال البارشوت الألمان ، فى هولندا وبلجيكا ، دوراً مروعاً حقاً ، ولكن الخوف ضاعف

آثار دورهم . . . فأصبح القسيس زائفاً ، وأصبح الضابط جاسوساً ، وأصبح الجنـــدى عدواً متنكراً ، وأصبح الأمر بالتليفون فى الجيش حيلة وخديعة ! . .

ولقد كلفت بأن أعود بجميع الصحفيين الفرنسيين المتصلين بالجيش البريطـــانى إلى باريس . . . وكان الأمر سهلا والتنفيذ صعباً . . فان الألمـان يتقـدمون وألوف اللاجئين يحـاصرون المحطات . والنساء يضغطن ضغطاً فى الزحام فيتصاعد صيـاحهن . . وكان القطار الوحيد الذى بقى للسفر إلى باريس يحمل فى الديوان الواحد ، المخصص عادة لثمانية أشخاص ، عشرين شخصاً . . وكانت الأمهات الوالهات يلقين بأطفالهن من النوافذ إلى الركاب المجهولين المختنقين من كثرتهم داخـل العربات ، قائلات لهم : « نستودعكم أولادنا حتى باريس ! . . »

ووقفت بالجهـد الجهيد إلى مكان أفسحه لى ضابط مستنير ، بين خزائن مرسلة إلى بنك فرنسا . . فوقفت بين هذه الصناديق الحديدية ، فى القطـار الذى تطارده الطائرات الألمانية ، حتى باريس ، مدى خمس عشرة ساعة ،

مسافة كان يقطعها القطار عادة فى أقل من ساعتين . .

وما إن وصلت باريس حتى كان همى الوحيد أن أطلع السلطات ، بأسرع مافى وسعى ، على ما لاحظته ورفقائى خلال هذا التقهقر ، والعلاج الذى قد يفوّت على الأعداء بعض فرص الظفر بنا . .

فقابلت رئيس الوزارة بول رينو ، فوجدته مهموماً ، مرهقاً بما لا عداد له من الشكاوى ، فرأيت أن شكواى ستكون ضغثاً على إبالة . . فسألته هل هناك من أمل ؟ .. فأجابنى بقوله : « ما دام المريض لم يقض نحبه فان الطبيب يقول لعائلته إن هناك بعض الأمل ... »

● وفى ٣ يونيه حلقت فوق باريس مائتان وأربعون طائرة ألمانية ورمتها بالقنابل . وفى ذلك اليوم كان قد جاء إلى باريس المستر « دف كوبر » وزير الأخبار البريطانى ، ودعانى الوزيران الفرنسيان : فوسار وجوليان إلى الغداء معه فى فندق ريتز . وفى لحظة الجلوس إلى المائدة انطلقت صفارات الإنذار معلنة غارة جوية . فلم يلبث الخدم والسفرجية ، طبقاً للتعليمات ،

أن تواروا فى المخابىء . . وأحرج الوزراء ومساعدوهم أشد الحرج . . لأن نزولهم إلى المخابىء يلوح كأنه انتقاص للشجاعة ، كما أن خدمتهم أنفسهم بأنفسهم انتقاص للكرامة ! فاستسلموا للأمر الواقع ، وجلسوا إلى المائدة أمام الصحون الفارغة ، على صوت دوى القنابل وقذائف المدافع .. منتظرين .. بيد أن الإنذار بالغارة قد طال، وكلما ازداد جوع البطون فتر الحديث وتراخت جباله . . وذهب رئيس مكتب وزير فدق التليفون لمدير البوليس ، وعاد فقال : « الأمر خطير جداً . . فقد ألقيت قنابل على مصانع ستروين ، ووزارة الطيران تشتعل فيها النار . والضحايا مئات عديدة . . . »

قال لى فيس مارشال الطيران البريطانى « بلايفير » : « ان الطيران الألمانى أكثر منا عدداً ، ولكنه دوننا نوعا . . وخسائره ثلاثة أو أربعة أضعاف خسائرنا . حتى أن مركزنا اليوم خير منه فى بداية المعركة » .

وإن المرء عند مايعرف بعض قادة السلاح الطيران الملكى البريطانى ليروعه تشابه عجيب بينهم . فإن تلك

الوحدة الجميلة ، ذات العيون الزرقاء ، تظل مترقرقة بنضرة الشباب رغم المشيب ، وهذا المزيج من الدماثة والصلابة ، ومن الرقة مع النظام والحزم ، هذه كلها من خصائص جيش الجو . .

ولما رأيت حالة اليأس من حولى قلت لرئيسى فى الجيش ، الكولونيل شيفر : إنى واثق بان لدى الإنجليز فى انجلترا طائرات مطاردة هائلة . . فلا بد لنا من عدد منها . . فإن مصيرهم كمصيرنا ، معلق بهذه الآونة . .

فقال لى : « اذهب إلى لندن وأذع نداء بالراديو للشعب الإنجليزى . . إذ يلوح ان الرأى العام هناك لم يدرك خطورة حالتنا الميئسة »

● فتحدد سفرى فى ١٠ يونيه ، على طائرة حربية ، إلى لندن . . والدبابات الألمانية تكاد تصل إلى أبواب باريس . . وقبيل السفر ، فى الساعة السابعة صباحا ، دق « التليفون » فاذا هو صديق ينصحنى بإرسال زوجتى إلى الجنوب . . فسألته : وهل تسافر الحكومة ؟ .

قال : — اليوم ! قلت : — أفلا ندافع عن باريس ؟
قال : — كلا ! . .

وفى هذه اللحظة ، عرفت أن كل شىء قد انتهى . . فإن فرنسا ، بحرمانها من باريس ، ستصير جسداً بغير رأس . . . لقد خسرنا الحرب ! . .

وكان علىّ أن أكون فى المطار عند الظهر . فقررت أنا وزوجتى أن نذهب لنرى ، ربما للمرة الأخيرة ، حنايا باريس وزواياها التى نهيم بها حباً . . فقلنا وداعاً للانفاليد ، ولرصفات نهر السين ، ولساحة دوفين ، ثم لكتدرائية نوتردام . . لم تكن باريس يوما ما أجمل منها الآن . . كانت السماء ذات زرقة شديدة الصفاء والشحوب . . وكان الهواء عليلا . . . وكان جنود المرور ، يستوقفون سيارتنا الصغيرة كالعادة ، ثم يسمحون لها ، كما لو كانت الدنيا لاتوشك أن تنتهى ! .

وكانت البائعات فى محل دخلناه يظهرن الهمة والاهتمام . . . وكانت الدموع تكاد تتبلور فى العيون ، وكل يبذل فى العمل جهده ، دون أن يتكلم عن

الحزن العظيم . فقالت زوجتي : ان الشعب الفرنسي جدير بالإعجاب . . فهو باسل وبسيط . . فكيف يمكن أن يغلب مثل هؤلاء الرجال ؟ فقلت لها : إن الرجال لا يستطيعون شيئاً أمام الآلات . . فقد قيل لهم « دافعوا عن خط ماجينو » . . وكانوا على استعداد للدفاع عنه . . ولكنه لم يهاجم قط . . بل أخذ من الخلف وطوّق . .

فقالت : « إنني لا أستطيع أن أتصور الألمان يدخلون باريس ! . . »

● وكنا قبل ذلك ببضعة أيام نتكلم عن احتمال دخول الجيش الألماني مدينة النور . . مع صديق من أعز أصدقائنا ، وهو الجراح الشهير « تييري دى مارتل » فقال لنا : « أما أنا فقد اتخذت قراري . . ففي اللحظة التي أعرف فيها دخولهم باريس سأقتل نفسي » . . .

وفي مساء اليوم الذي طرت فيه إلى انجلترا كانت زوجتي تختار ، واجمة ، بعض الأشياء النادرة التي لا غنى لها عنها ، فإذا بالتليفون يدق ، وصوت « تييري دى مارتل » يسأل عنا ، فأخبرته بسفري ، فقال : إنه أيضاً سيسافر

فى رحلة طويلة ، أطول من رحلتى . . . .

فتذكرت زوجتى عزمه على الانتحار ، وحاولت أن تثنيه عن عزمه ، قائلة : — إنك تستطيع أن تؤدى أيضاً من الخير الشىء الكثير .. مرضاك ، ومساعدوك ، وممرضتك ، والناس جميعاً بحاجة إليك ... فأجاب : « انى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن ، فإن ولدى الوحيد قد قتل فى الحرب الماضية ، وكنت حتى هذه الحرب ، أصدق أنه مات لينقذ فرنسا ... وها هى‌ذى فرنسا ، بدورها ، قد ضاعت ... وكل ماعشت من أجله سيختفى .. فلا أستطيع على هذا بقاء ... »

وفى ٢٥ يونيه بينما كانت زوجتى تقلب جريدة أمريكية علمت بأن « تييرى دى مارتل » قد انتحر بحقنة استركنين ، فى ساعة دخول الجيش الألمانى باريس ... فخسرنا بموته صديقاً منقطع النظير ، وخسرت فرنسا رجلا من أنبل رجالها ... فهذا الجراح العبقرى قد ربح ثروة طائلة ، وفتح عيادات مجانية ، عمل فيها العمليات لألوف المساكين .. وأعرف

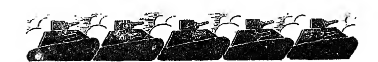
حالة أنقذ فيها من الموت بعملية خطيرة ـ كان هو وحده الذى يستطيع عملها ـ رجلا كان من زمن طويل يلاحقه بحسده وحقده . ولا شىء مثل هذا الانتحار يعبر عن الحزن المروع الذى أصاب الفرنسيين أمام النكبة الشاملة التى حلّت بهم ، والتى اعترف مثل هذا الرجل الشهم بالعجز عن الحياة معها . . .

وفى أثناء التقهقر فى ساحة الفلاندر ، قالت لى فلاحة عجوز ، واقفة بباب عشتها وهى ترى مواكب اللاجئين :

ــ أسفاً سيدى . . على مثل هذه البلاد العظيمة . .

أسفاً أيضاً على موت « تييرى دى مارتل » !

أسفاً على هذا اليأس والقنوط يقضيان على أمثال هذه النفوس ، ويهددان هذه الحضارة المجيدة ، لأن خمسة آلاف دبابة ، وألفى طائرة كنا نستطيع بلا أية صعوبة أن نصنعها أو نشتريها ، فلم نفعل . . .



٦

أندريه موروا :

لماذا افترقت فرنسا عن انجلترا ؟ . البطء الانجليزى . العواطف والدبابات . أمثاله فى أمة ؟ !

● منذ بدأت الحرب ، فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، والدعاية الألمانية قد اتخذت لها هدفا أساسياً ، هو التفرقة بين فرنسا وانجلترا ، وبذلت فى هذا السبيل ، مدى ثمانية أشهر ، جهدها ولباقتها . وكانت تكرر للفرنسيين كل يوم أن الإنجليز ساقوهم إلى الحرب ، وهم لايحاربون ، ولن يحاربوا أبداً ! . . وأن الإنجليز يقدمون الآلات ، والفرنسيين يقدمون صدورهم . وكانوا يرسمون صور «حمّام » من الدم يدفع إليه جندى إنجليزى جندياً فرنسياً . . وغير ذلك ضباطاً من الانجليز يداعبون نساء أنصاف عاريات فى حين يسهر جندى فرنسى على خط ماجينو . . وقد انتهت هذه الدعاية بالتوفيق فى يونيه سنة ١٩٤٠ ، لا بتفرقة

الأمتين الحليفتين فقط ، بل بوقف كل منهما ضد الأخرى . .

فما سر هذا النجاح ؟ . .

إنه يرجع إلى أن هـــذه الدعاية قد صادفت فى نفوس كثير من الفرنسيين هوى لاعتبارات مبتسرة عتيقة . . فقبل أن تكون ألمانيا عدوة لفرنسا ، كانت انجلترا عدوةً لها . . وذاكرة الشعوب شديدة الإخلاص بطيئة النسيان .

فى أى أقليم فرنسى كنت إذا ماتحدثت بثقة عن الصداقة البريطانية ألقى أمامى ذكرى حرب المائة سنة . . صحيح أن « دكلاسيه » قد أتم الصلح بين البلدين وعقد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ . . ولا ريب فى ان انجلترا حاربت إلى جانبنا ، بمنتهى الولاء ، من سنة ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وبلا نزاع إن مليونا من القتلى البريطانيين يرقدون فى مقابر شمالى فرنسا . . بيد أن سوء التفاهم نشب بعد الحرب الماضية ، مرة أخرى . . وقد قال لى ، فى عام ١٩٣٠ ، اللورد تيرل ، السفير فى باريس : « إننا نحن الإنجليز قد ارتكبنا بعد الحرب غلطتين : ظننا أن الفرنسيين

وقد انتصروا ، قد صاروا من الألمان ، وأن الألمان قد تحولوا إلى إنجليز » ! . .

أما ماكنت أعاتب الإنجليز عليه فهو أنهم لم يكونوا مخلصين لإنجليزيتهم . . فيدركوا ان ألمانيا ، إذا ترك لها الحبل على الغارب — فأعادت تسليحها على ماتهوى ، تحميها من الغرب حصون قوية ، وتدفعها فكرة الثأر وروح الانتقام — فإنها تصبح خطراً مخوفا علينا وعليهم على السواء . .

وقد حملت للشعب الإنجليزى ، من زمن طويل ، كل تقدير وصداقة . وقد عملت فى الجيش البريطانى ، كضابط اتصال ، خلال حرب ١٩١٤ ، فعلمتنى التجارب ان انجلترا تنفذ ، حرفياً ، ما وقّعت عليه وتعهّدت به . . . وأنها إذا كانت ، مثل كل الأمم ، تتخذ الخشونة أو القسوة مركباً عند ماتكون حياتها القومية فى خطر ، فانها على الأقل لاتمزج الشدة بالشر .

● إن مركب النقص هو الذى يبعث القسوة فى الشعوب وفى الأفراد . . وليس فى انجلترا شىء من

مركب النقص. انها أبعد ما تكون عن ذلك. ان تسعة قرون هناء ورخاء، مرت عليها، قد علمتها تفاؤلا لا يعرف التشاؤم اليه سبيلا. ولأنها كانت دائماً تنتهى بكسب الحروب التى اشتبكت فيها، قد بلغ بها الأمر إلى عدم التفكير فى انكسار محتمل، وعواقبه الوخيمة. فلم تكد تعلن الهدنة حتى عادت إلى عشبها الندى، وقراها الجميلة، وبيوتها الصغيرة المستقلة البهيجة، ورياضتها، وخيولها، وعاداتها التقليدية، ولم تعد تريد أن تستمع إلى حديث عن سلاح أو عراك.. ولقد لقن أساتذتها شبابها: أن الحرب ميراث وحشى يسهل تبديده.. ولم يقولوا لتلاميذهم: إن القوة إذا لم توضع فى خدمة العدالة، فإن الظلم عندئذ ينتصر..

وإذا كانت انجلترا شديدة التعلق بفكرة عصبة الأمم، فقد كان ذلك، من جانب، لمثل أعلى أخلصت له، ومن جانب آخر لفكرة غامضة خاطئة هى أن الخطب والحجج تفوز على المدافع والقنابل..

● لهذا استغرقت انجلترا فى الرقاد، على عشبها

الأخضر ، من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٣٩ ، ولم تستيقظ إلا بعد ميونخ . . . فوصلت إلى الحرب وهى تكاد تكون بغير جيش . . وكان ذلك هو العنصر الثانى لنجاح الدعاية الألمانية التى قالت للفرنسيين : « انظروا ، إن الإنجليز ليس لهم جنود ، فسيحاربون حتى آخر جندى فرنسى » : . . . وكان هذا أبعد ما يكون عن الحق ، فانجلترا تملك أعظم بحرية فى العالم ، وطيرانها فائق ممتاز . . وإن كانت فعلا لم تستطع ، لقلة الرجال والعتاد ، أن يكون لها ـ لأول وهلة ـ جيش عرمرم .

● إن انجلترا بطيئة بطبيعتها ومبدئها ، وقد قال لى يوماً ، الجنرال «بيلوت» الذى كان يقود مجموعة جيوش الشمال : « الإنجليز ؟ انى أجد لهم صفات عظيمة . وهم جنود غاية فى الثبات ، وزؤساؤهم رجال حرب وجلاد . إلا أن بُطأهم يدعو إلى اليأس . . تصور أن عندهم بعد ثمانية أشهر من هذه الحرب عشر فرق ! . مع أنه كان فى وسعهم على الأقل تأليف ثلاثين فرقة ! . . انهم يريدون الكمال فى التدريب العسكرى وفى عتاد الحرب . .

وينسون عامل الوقت الذى يستغله الألمان .. وهناك حالات يصبح فيها العتاد المتوسط حالا خيراً بكثير من عتاد كامل بعد الحرب . . . »

وعلى ذلك، رغم شهرة هذا البطء والتثاقل، فإن الدعاية الألمانية حتى ابريل سنة ١٩٤٠ كانت أبعد ما تكون عن غرضها . بالطبع كنا نلقى فى فرنسا كثيرين يكرهون الإنجليز، وكان بعضهم يتخذون من هذه الكراهية حرفة لهم . ولكن العلاقات بين أركان حرب الجيشين كانت أطيب كثيراً منها فى الحرب الماضية، وكان أمراء البحر لا يخفون عن بعضهم سراً . . كان الإنجليز يبوحون لنا بكل اختراعاتهم الحديثة وكنا نفتح لهم ملفاتنا .

● وكان للبحرية الإنجليزية الفضل، عند كثيرين من الفرنسيين، فى اعلاء شأن المحارب البريطانى . فحكاية البارجة الألمانية «جراف‌سبى» و «ألتمارك» ومعركة نارفك كانت ذات تأثير عظيم . حتى راح أكثر الفرنسيين تمرداً على الإنجليز يعترفون بفضلهم، ويمجدون عملهم .

● أما سلاح الجو البريطانى فكان السلاح المحبوب منا، الذائع الشهرة بيننا . . وفى بداية الحرب لم تكن فرنسا نفسها تملك إلا طائرات قليلة ، فأدخل ذلك السلاح الطمأنينة على قلوب جنودنا . فكانوا يبتهجون إذ يرون طائرة «هاريكان» تهاجم «هينكل» أو «دورنييه» وتضربها بمدافعها الثمانية الرشاشة ، فتهوى شعلة من نار . . . وكان طيارو «الهاريكان» و «السبتفاير» جديرين بطائراتهم . فهم شباب ، رياضيون ، متحمسون ، ظرفاء فى بذلهم الرمادية الزرقاء ، لا يعادل تواضعهم إلا بسالتهم .

● وكانت معركة الفلاندر ، مثل كل الهزائم ، سبباً فى العتاب المتبادل . لا لأن الشجاعة كانت تنقص أحد الجانبين ، فقد حارب الإنجليز، كالفرنسيين ، بشهامة . . فقال الإنجليز : « إننا طُوّقنا وخسرنا كل عتادنا بسبب خطأ عسكرى لم نرتكبه » ورد الفرنسيون : « صحيح ان اخطاء ارتكبت ، ولكن أولها وأخطرها هو نقص القوات والمعدّات ، وهذا النقص لكم نصيبكم منه . . »

وقد هرع تشرشل بعد هزيمة «سيدان» إلى باريس فى ١٦ مايو فأدهش مجلس الحرب الأعلى وبهره بقوة شكيمته، وشدة تصميمه وعزيمته . فأعجب الأعضاء فيه آنئذٍ أنه شبيه بالأسد الهصور فى غضبته ، وروعة بيانه وحجته . . . وكان يكره عمليات التقهقر والانسحاب ، ويؤثر الزحف والهجوم . .

وبعد دنكرك ، حدث رد فعل فى الرأى العام الإنجليزى ، فأشار بعض الصحفيين بعدم إرسال جنود إلى فرنسا بعد انقاذ ما أمكن إنقاذه بالجهد الجهيد . . فلا نفع للجيش الفرنسى بالجنود الآن، وهو فى حالة ميئوس منها ، فضلا عن أن ذلك يضيعهم كل الضياع عند الدفاع عن الجزر البريطانية . .

وقد حاذر القواد الإنجليز ، بعد معركة الفلاندر ، حركات التطويق ، فكانوا بالطبع يؤثرون أن يحمى البحر ظهورهم ، وأحست القيادة الفرنسية هذا القلق ، وخشيت عواقبه ، وكان زمن التعاون الوثيق قد ولّى وانقضى .

● وفى الموعد المحدد لسفرى إلى لندن ، لأوجه نداء الغوث والعون ، أخذت الطائرة التى كانت قد حملت فى الصباح إلى فرنسا اللورد لويد . . فذهبت من فورى إلى البعثة الفرنسية التى أخذتنى إلى وزارة الأخبار البريطانية ، فوجدت فى دارها أصدقاء كثيرين : وزيرها دف كوبر ، وسكرتيرها البرلمانى هارولد نيكلسون (من خيرة كتاب العصر) ، ورونالد ترى ، ولورد هود وعشرة سواهم . فوصلت فى الساعة التى عقد فيها مؤتمر الصحافة اليومية . وكان يرأسه شارل بيث ، من وزارة الخارجية ، فدفع بى إلى المنبر قائلا : « ما دامت مهمتك أن تعرفنا الحالة فى فرنسا فها هى ذى الفرصة سانحة لك ، لأنك ستتكلم أمام الصحافة البريطانية كلها » .

ولم أكن قد حضّرت شيئاً أقوله ، ولكننى فى ذلك اليوم كنت ، من شدة التأثر من مصائب فرنسا ، والمستقبل البشع الذى ينتظرنا ، أجد الكلمات تتدفق بغير حساب . . ولما انتهيت أدهشنى كثيراً ان وجدت الصحفيين الثلاثمائة قد نهضوا وصفقوا طويلا . . وإنى

أعتقد أنه لم يحدثهم أحد حتى الآن بتلك الصراحة عن فظاعة مركز فرنسا، وضرورة إسعافها للحال، واستحالة الثبات علينا إذا لم ترسل إلينا انجلترا النجدات.

وقدمت إلىّ محطة الاذاعة البريطانية خير وقت لديها قبل نشرة الأخبار المسائية، لأوجه ندائى، إلى الشعب البريطانى . . فرجوته أن يفعل كما فعل فى معجزة دنكرك التى كان يستحيل تمامها لولا روح البسالة والتضحية التى أنقذت ٣٣٥٫٠٠٠ رجل . . وقد أعطى كل سفينة لديه . . فليعطنا الآن كل طائرة، كل رجل، كل بندقية . . ولنتوجه معاً إلى أمريكا لتنتج لنا فى شهر أو شهرين ما تنتجه عادة فى سنين . . . فإذا قال الخبراء باستحالة تدريب جيش كبير وتسليحه وإرساله فى أسابيع قليلة، قلنا لهم : « هذا حق، وهو مستحيل، ولكن يجب أن يعمل المستحيل ! »

وقد تحمس الرأى العام البريطانى لندائى، وانهالت علىّ الرسائل والدعوات للخطابة والمحاضرة، والكل يقول بالرغبة فى مساعدة فرنسا . . وقد راعنى روح

الرغبة فى الخدمة ، وذلك الكرم الذى لاحدّ له ، مع الجهل بما كانت عليه فعلا تلك الحرب . غير أن العواطف لاتحل محل الدبابات ، ولا الطائرات ، ولا البندقيات . .

ولقد تحدثت إلى سفير فرنسا شارل كوربان فقلت له : « أليس غريباً مع ذلك ان الإنجليز فى الشهر العاشر من الحرب ، وليس لديهم جيش ؟ ! »

● فقال : « أجل ولكن يجب أن نكون منصفين . فقد حافظوا بالدقة على تعهداتهم التى قطعوها على أنفسهم . . وكانت قد تحددت مواعيد لتكوين الفرق البريطانية ، فاحترمت تلك المواعيد ، وكانت الغلطة هى ألا نطالب حلفاءنا بعدد من الفرق يعادل ما كان لدينا منها فى سنة ١٩١٤ . ولكن الواقع أننا لم نطلب من ذلك شيئاً . . فان أوهام خطة الدفاع وخزعبلات الخطوط المحصنة قد أعمت بصائر وزرائنا »

وفى صباح ١٣ مايو أعلنت الصحف وصول الألمان أمام باريس ، وبينا كنت أطالع « التيمس » ، بكآبة ، دق جرس التليفون ، وقالت لى سيدة ، من

وصيفات الشرف ، إن الملكة ترغب فى مقابلتى ، فى الساعة الحادية عشرة . بقصر بوكنجهام . وكنت قد قُدّمت إلى الملكة اليزابيث عند ما كانت دوقة يورك ، ثم رأيتها ، وقد صارت ملكة ، فى باريس ، وإن كنت لم أعرف سبب حظوتى بشرف هذه المقابلة ، فاجتزت الأبهاء الفسيحة الفخمة ، تزينها الصور الرائعة التى لا تحصى ، والخدم الشامخون بسترهم الحمراء ، والأثاث الغالى ، كل هذا قد ظل صورة طبق الأصل . .

● وسار بى السير الكسندر هاردنج إلى الملكة ، فقالت لى : — « يا مسيو موروا ، أريد أن أعبر لك عن حزنى الشديد على باريس . . وعن عطفى الشديد على الفرنسيين فى محنتهم . . فلشد ما أحب فرنسا . . وفى أثناء رحلتنا إلى باريس ، منذ عامين ، أحسست بقلوب النساء الفرنسيات تخفق ، أقرب ما يكون الخفقان ، إلى قلبى . . سأحاول هذا المساء أن أُحدثهم بالراديو ، وأن أقول لهم أشياء غاية فى البساطة ، صادرة من صميم فؤادى » .

وحدثتنى عن حديثها، ثم سألتنى عما رأت عيناى ، وعن زوجتى وأولادى . . فقلت لها : إننى لا أعلم شيئاً عنهم ، فعبرّت عيناها ، بحنان لا يوصف ، عن عطف إنسانى كان له أبلغ الأثر فى نفسى . . ولما قالت لى : « لشد ما أحب فرنسا » شعرت بأنها ليست جملة رسمية ، وأنها صيحة صادرة عن تأثر صادق . ان الملكة ، مثل شعبها ، كانت تريد عمل ما يمكن لمساعدتنا ، ولكن كان قد فات الأوان . .

● وبعد سقوط باريس ، وصل ونستون تشرشل إلى « تور » ، فانزعج للفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد ، وكان المطار الذى نزل فيه قفراً ، ولم يكن باستقباله رجل من رجال الحكومة ، أو أى موظف إطلاقاً ! . . فوجد صعوبات مرهقة ليعثر على حكومة فرنسا فى تلك البلدة الغاصة باللاجئين ! . .

● وهناك علم بعزم الحكومة على التسليم ، فظن تشرشل أنه يستطيع تدعيم وزارة رينو ، وحملها على استمرار النضال ، إذا عرض عليها تكوين أمة واحدة من الأمتين :

الإنجليزية ، والفرنسية . . فيكون لكل مواطن فيهما جنسية مزدوجة : فرنسية بريطانية . وأن تكون جميع مصادر الثروة فى الامبراطوريتين مشتركة بينهما ، بلا تمييز ولا تفريق . . وكان ذلك العرض ، السمح الكريم ، خارقاً للعادة ، ولو أنه تقدم قبل ذلك ببضعة أسابيع لغيّر مجرى الحرب . . ولكنه جاء فى اللحظة التى تلهث فيها فرنسا تعباً ونصَباً وإعياء ، فلم تعد تطلب لفوزها إلا عوناً عاجلا من الطائرات والمدافع والدبابات .

وكان هذا العرض العجيب ، من ونستون تشرشل لفرنسا ، محلا لدهشة البرلمان البريطانى الذى بهت من كرمه وامتعض ، ومع ذلك جرح جرحاً أليماً ، إذ رأى الدعوة إلى توحيد الأمتين قد قوبلت بعدم الاكتراث ! . .

● والآن لم تعد تفكر انجلترا إلا فى تنظيم دفاعها الخاص . . وإذا كانت ، فى مايو ، لم ترسل إلى فرنسا فرقاً عديدة مسلحة تسليحاً قوياً ، فقد كان لديها بعد ذلك بشهرين أكثر من مليون جندى ، شاكى السلاح ، لمقاومة جيش الغزو . . وتكونت فى كل قرية ضد رجال

البارشوت فرق من المتطوعين . . وقد وجد فى كل مكان روح العزم والتصميم على الحرب ، وشجاعة ضاعفها الموقف الحرج . . لقد أصيبت انجلترا بصدمة مروعة ، إذ اكتشفت ، فجأة ، أن الجيش الفرنسى لم يكن جيشاً لا يغلب . . وأنها هى نفسها لم تعد فى جزيرتها فى أمان . . ولكنها ، كما كانت فى كل تاريخها ، قد زادها الخطر بسالة وصلابة .

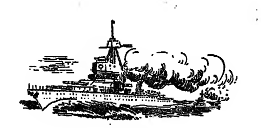
● ومن بين جميع المصائب والمحن التى انهالت على رءوسنا ، فى هذه الحرب ، لم أجد أشنع ولا أبشع من الفراق بين فرنسا وانجلترا . . فإننى كفرنسى قبل كل شىء ، ولكن كصديق لانجلترا منذ عشرين عاماً ، كنت كطفل فرّق الطلاق بين أبويه ، ولكنه يلوذ بأمه ويتعلّق وهو يتألم . . إن قلبى يقول : « بلادى ، أخطأت أم أصابت » . . وان عقلى ليرثى لهذه القطيعة بين شعبين أشد ما يكونان فى حاجة إلى بعضهما البعض . .

وفى الباخرة التى حملتنى إلى أمريكا استندت إلى الحاجز أتأمل البحر طويلا وهو يرغى ويزبد . وإلى

جانبنا الطرادة الكبيرة ، التي تحرسنا ، تجرى فى سكون . . والركاب الإنجليز يحترمون حزنى . . فيمرون إلى جانبى دون أن يكلمونى ، وكأنهم يسمعون بى . .

ثم خطرت لى ، فجأة ، كلمة قالها لى ذات مساء « وسموند ماك كارلى » : ـ مهما حدث ، فلن ننسى أن أصدقاءنا لم يتغيروا ، ولم يقلبوا لنا ظهر المجن . . . » فتمتمت من حيث لا أدرى ، بالأغنية الأسكتلندية القديمة : « كيف يمكن نسيان الوداد . . . »

وفى الظلمات الخافقة حول سفيننا ، لمع برق خاطف . . كلمحة الأمل فى ليل القنوط . . وكانت تلك علامات مضيئة ، طويلة وقصيرة ، تحمل إلينا رسالة خفية ، لم ندرك إلا أنها لحمايتنا وسلامتنا ، وكأنها رمز الرجاء من وراء الغيب . . .



٧

سيسيل ملفيل :
يصف دور المرأة فى انهيار فرنسا ويبسط تفاصيل مأساة رينو والسكونتس هيلين دى بورت

● لقد كنت دائماً من محبي فرنسا . تغذيت ، كالكثيرين من شباب جيـــلى ، بالأدب الفرنسى ، وتثقفت بالثقافة الفرنسية ، وأدركت أن الفرنسيين يفهمون من فن الحياة أكثر مما يفهمه سواهم من الشعوب . . وتأثرت بتاريخهم ، ومجدت فيهم أول أمة نادت بحقوق الإنسان . وأقررت ما قاله فيكتور هيجو فذهب مثلا : « إن كل رجل ذكى الفؤاد له وطنان : وطنه ، وفرنسا »

وكصحفى كنت على اتصال مستمر بالفرنسيين من موظفين وكتاب وصحفيين . حتى أصبت بصدمة الانهيار الروحى والمادى ، التى أصابت فرنسا ، ولم أبرأ منها حتى الآن .

أجل . لست أخفى تعصبى لفرنسا ، وإنى أحب من

قرائى الإنجليز ، ومن أصدقائى الفرنسيين ، أن يعلموا أن هذا الكتاب لم يكتب قط بروح العداء لفرنسا . وهو ليس حملة على الشعب الفرنسى . بل ، على الضد ، مازلت أحب فرنسا وأومن بأنها ستهب من رقادها . أجل إنى مازلت أحبها ولم أكفر بمستقبلها .

إن اسم رجال فرنسا المذنبين قد أصبح فى ذمـــة التاريخ . . سواء منهم الذين مهدوا ـ بضعفهم وإهمالهم قبل الحرب ـ عوامل السقوط ، أو الذين ارتعـدت فرائصهم بعد الحرب فرقاً ، فاستكانوا وخفضوا لعدوهم الوراثى اللدود جناح الذل والاستسلام

لقد كانت خديعة « ميونخ » التى سلمت بعدها بلاد التشيك للطاغية الألمانى ، من الأخطاء التى لاتغتفر . . وعندما وصلت طائرة المسيو دلاديه إلى باريس بدأ يتحرك ضميره ويؤنبه على مافعل بحليفته . فهو وان لم يكن رجلا قوياً ، إلا أنه رجل شريف ، إن وجهـه يشبه وجه نابليون ، وكانوا ينعتونه لضخامته بـ « الثور » ، ولكنه ليس ثوراً ، لا ولا « نابليون » . . إنه رجل

لابأس به ، لولا أنه لايبرم أمراً ، وقديماً قالوا : إن فساد الرأى أن تترددا . . .

لقد راح يقدم الشكر على نعمة السلم ، أمام الشعلة المقدسة ، فوق قبر الجندى المجهول . . ولعله كان يقدم الندامة على أن فرنسا أذنبت ولكل ذنب عقوبة .

ان ماريشال فرنسا الكبير « فوش » زعيم انتصار سنة ١٩١٧ كان يقول : « إن المرء لايغلب على أمره حتى يغلب بادىء بدء فى ذات روحه وفكره » ، فالانتصارات التى نالها بدأت أولاً بالتفوق المعنوى على العدو . وكانت فرنسا سنة ١٩٣٨ قد خسرت المعركة الروحية سلفاً . . وأضاعت التفوق المعنوى . . فكان لابد فى سنة ١٩٤٠ من خسارتها فى ميدان القتال . .

● وقد حدث أن زار بعض مراسلى صحف لندن الدبلوماسيين المقيمين فى باريس ، خط ماجينو ، فى أيام الحـــرب الأولى ، بدعوة من الحكومة الفرنسية ، وهناك وجدوا الكولونيل الاختصاصى فى الدبابات والفرق الميكانيكية المصفحة ، فسألوه ،

فأشار إلى الدبابات قائلا ، للصحفيين الإنجليز :

● « دعوهم يعطونى ألوفا من هذه ، وأنا الكفيل باختراق خط سيجفريد ، وكسر ألمانيا فى بضعة أشهر »

● وكان المتكلم ، ذلك الكولونيل الفرنسى « دى جول » نفسه قبل أن يشتهر أمره . . ولكن لم يكن لديه أمل فى أن ينال مايتمنى فى عهد المسيو دلادييه والجنرال جاملان . ولم يتمكن من الظهور إلا بعد وصول منافس دلادييه الى الحكم ، مسيو بول رينو ، الذى كان يؤمن بآراء دى جول ، فأتاح له الفرصة للعمل لكن بعد ماسبق السيف العذل ! . .

● لقد حارب دلادييه الشيوعية . وزاد ساعات العمل ، ونظم العلاقات بين العمال وأرباب الأعمال . . ولكنه لم يستطع تطهير الأداة الحكومية من الطفيليات السياسية التى تدب من حوله ، لافرق فى ذلك بين من كانوا من حزب اليسار أو اليمين . لقد كان تقاعسه هو السبب . لم يكن حازم الرأى ، فى وقت تحتاج فيه بلاده إلى رجل لاتلين له قناة . . . . . .

كان، دلادييه وطنياً ولا شك . ولكنه كانت تنقصه الشجاعة كذلك ، ويعوزه البأس الشديد . لذلك قوى فى عهده ساعد الطابور الخامس ، الذى حفر طويلا تلك الهوة الجارفة تحت اقدام فرنسا .

أما تاريخ المسيو بونيه فى وزارة الخارجية الفرنسية فهو تاريخ انتحار فرنسا كدولة عظمى .

ان سجله ، سجل التردد والهزيمة ، يرجع إلى زمن بعيد ، بعيد جداً من تسليم بوردو . . . انه يعود إلى السنين السابقة للحرب .

لقد كان بونيه العامل الأول ، يساعده فلاندان ، فى تسليم تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٣٨ : وبعد احتلال الألمان لبوهيميا ـ مورافيا ، أصبح المهندس الرئيسى لسياسة بيع أوربا ، شرق الرين ، إلى هتلر . وفى خلال الشهور التى مضت بين التهام بوهيميا ـ مورافيا ، وهجوم الألمان على بولونيا ، ظل بونيه صاحب سياسة « السلام بأى ثمن » التى تعمل بقيادة « آبتز » جاسوس « فون ربنتروب » فى باريس ، ووكيل

« جماعة فرنسا ـ المانيا » عماد الطابور الخامس الذى حطم معنوية فرنسا، وحاول افساد الحلف الفرنسى البريطانى.

● ولكى نفهم مسيو بونيه، لابد من أن نعرض للجانب السيكولوجى والسياسى منه على السواء، فقد كان من أشد الناس يقيناً بضعف فرنسا، فضلا عما طبع عليه هو نفسه من الجبن، زد على هذا ما علق بنفسه من مرارة شخصية، عقب « ميونخ »، وحملة الصحف البريطانية عليه. فاراد تعويضاً بالتقرب من موسولينى، فلم يوفق، فى حين تنبه الألمان لعوامل التحلل والضعف فيه فبدأوا يتملقونه، لذلك لما اختفت تشيكوسلوفاكيا، وكان بونيه من محبذى ذلك، فرح بألمانيا حين تقدمت تلوّح بصداقتها لفرنسا!.. فى حين راحت الصحف الألمانية تندد ببريطانيا، وتفصل بين لندن وباريس، وتصل فعلا إلى ميثاق الصداقة الألمانى الفرنسى الذى جاء فون ريبنتروب لعقده فى باريس، وكان الغرض الأول منه هو إخلال فرنسا بتعهداتها لبولونيا، فى حالة اعتداء الألمان عليها، بينما كان آبتز يعمل فى الدعاية بين الفرنسيين بما

يهددهم من البلشفية . وكان لذلك فعل السحر فيهم . فقد استخدم هتلر أداة التهديد بالشيوعية، لاخافة أرباب المصالح والأعمال، كما استخدم آبتز فى دعاية أخرى بين عامة الشعب الفرنسى وعماله وصناعه تقول : بأن من الحماقة أن يحاربوا من أجل الرأسماليين البريطانيين !. .

● وكذلك كان آبتز قد ألقى شبكة كبيرة حوله من الجاسوسية والرشوة، وبذل أموالا طائلة، وأغرى جماعة من الصحفيين والكتاب بترجمة مقالاتهم وكتبهم إلى اللغة الألمانية، ومنحهم على ذلك أجوراً عالية لطبعات لم تظهر قط . ولم يغب عن الذهن بعد حكاية الصحفيين الفرنسيين الكبيرين، فى جريدتى الطان والفيجارو، اللذين اتهما بالعمل لحساب دولة أجنبية ، ووعد دلادييه بأن يظهر التحقيق كل الخفايا والدنايا، ولكنه لم يفعل شيئاً ، واكتفى بإخماد الفضيحة التى كانت متغلغلة فى أوساط عالية، وأمر آبتز بمغادرة فرنسا .

وفاحت رائحة وزير خارجية دلادييه، المسيو بونيه، وأنه كان من وراء ظهره يتفاوض مع الأعداء، فلم تكن

لديه الشجاعة لطرده ، واكتفى بأن حوّله إلى وزارة العدل حيث كان لا يزال داعية إلى : « السلام بأى ثمن » ! ..

وكانت آخر فضائح بونيه أنه أخر اعلان الحرب على ألمانيا ، بعد ما أعلنتها انجلترا ، مما أحدث دهشة وضجة وقلقاً . وحقيقة المسألة التى ما زال يجهلها أكثر الناس ان مسيو بونيه كان فى تلك اللحظة العصيبة نفسها مازال يتفاوض مع موسولينى ، الذى كان لديه مشروع مؤتمر تضحى فيه بولونيا ، كما ضحيت تشيكوسلوفاكيا فى مؤتمر ميونخ ، لكى تتجنب فرنسا الحرب ، ولكن لندن كانت قد أطلقت سهم صبرها الأخير ، ففشلت خطة بونيه ، وهذا هو التفسير الحقيق لتأخير إعلان فرنسا الحرب عن انجلترا ، مما عجب الناس له يومئذ . .

● إن مأساة بول « رينو » التى ارتبطت بها مأساة فرنسا الكبرى ، لا تعد حكاية رجل أخطأ بعلمه .. بل هى حكاية رجل تسرب إليه الخطأ على رغم مزاياه الباهرة . . رجل كان متأثراً برجال آثمين ، وامرأة آثمة . . عملوا

جميعاً من حوله ، وحاكوا شباكهم بدقة ، حتى خرّ صريعاً ، روحاً وبدناً . .

● ومع ذلك إذا استعرضنا ماله وما عليه وجدناه ، على رغم فضائله ، لم يكن جديراً باللحظة الفاصلة التى تقرر فيها مصير فرنسا . . . حقاً ان وطنيته لاغبار عليها ، ولا شك فيها . وقد ظل الخونة يضيقون عليه الخناق حتى اختنق بدسائسهم ، وظل يقاوم ضعفه ، ويحاول أن يخدم فرنسا

● لقد كانت فيه صفة نادرة فى الرجل السياسى الفرنسى ، هى أنه كرس نفسه خالصاً للحق . ولم يكن توفيقه الباهر كوزير للمالية يرجع إلى موهبة خارقة فى سياسة المال ، وإنما لأنه ، دون من سبقوه ، قد توخى الحق صريحاً ، وواجه الموقف وصارح به بلاده بشجاعة ، فاكتسب حتى ثقة خصومه السياسيين ؛ وهو أمر يندر فى عالم السياسة الفرنسية . أجل ، كان رينو شجاعا لم يخش قط أن يذكر الحق كما رآه ولو جاء معاكساً لحكومته ؛ وبدت صفته هذه ، لا فى الشئون المالية وحدها ، بل فى

السياسية والخارجية أيضاً . فنى الحـــرب الحبشية الإيطالية لم يخش أن ينتقد سياسة «لافال» التى تمالىء موسولينى على الاعتـداء . وفى ذلك الوقت، الذى لم يكن شعور الفرنسيين نحو بريطانيا فيه ودياً، لم يكف عن ضرورة تدعيم الميثاق الإنجليزى الفرنسى، والإبقـاء على عصبة الأمم.. وكذلك من أعظم الحسنات أنه كان أول سياسى فرنسى اعترف بعبقرية الجنرال دى جول (عند ماكان كولونل) فى وقت تجاهله فيه دلادييه، وأنـكرت هيئة القيادة الفرنسية العليا آراء دى جول فى الفرق الميكانيـكية . وكذلك دعا دى جول فيما بعد ، فى الساعات الأخيرة الأليمـة، لرياسة وزارته ، ليـكون إلى جانبه وكيلا لوزارة الحرب . . ولم تـكن تلك الدعوة عفو الساعة ، بل هى راجعة إلى ثقة سنوات عـديدة فى الجنرال « دى جول »، وبذلك ، وبمثله ، كان رينو يواجه الحقيقة رأساً

● وكانت الساعات الأولى من الحرب قد مرّت فى جمود . والجيوش الفرنسية تتمطى وتتثاءب فى خط ماجينو، بينا

وراءه ، بل فيه نفسه ، تعمل دعاية الهزيمة . وكانت ألمانيا قد استولت على النرويج والدانمرك ، واستعدت لأخذ هولندا والبلجيك ، تمهيداً لغزو فرنسا . وسقط دلادييه فى باريس ، وتبعه تشمبرلين فى لندن ، وتولى الحكم مكانهما رينو وتشرشل . وظل رينو يعمل ، بقوة وشجاعة ، عملا مجيداً لولا الوسط الخائن الذى كان حوله ، وتركة مثقلة بالديون ، تركها له سلفه . لم يكن فى أعصب ظرف أشجع رجل . كانت أقواله أشجع من أفعاله . كان فيه عرق ضعف استغله فرنسيون آثمون فى وزارته ، وخارج وزارته . . كان رينو أشجع من دلادييه ، وأكفأ منه . وكان يقرر ويفعل ، ولكنه تراجع عند ما جاءت النهاية المريرة التى تتوقف عليها الحياة أو الموت .

● كان فى مقدور رينو أن يواجه التحدى والحملات والهجمات . . ولكن أعصابه تراخت تحت ضربات حرب الأعصاب الطويلة الدقيقة المستمرة المنهكة ، التى أعلنتها عليه عصبة شريرة ، حتى اضطر إلى استقالة بوردو

الشهيرة . . وربما لم يكن ، على أى حال ، من المستحيل
عليه مقاومة هذه العصبة ، لو كانت كلها من الرجال . . ولو لم
يكن على رأسها امرأة خطرة هى « هيلين » ـ كونتس
دى بورت ـ فهذه الكونتس قد صارت شيطانه ، وعملت
أكثر من أى إنسان لتحطم أعصابه ، وتهدم استبساله .
● وكذلك نرى أن مأساة بول رينو هى سياسية
وبشرية معاً . وقد بدأتْ فى صالون باريسى . وانتهت
بحادثة سيارة ، فى الطريق إلى بوردو . . .

ورينو الآن سجين « ريوم » . فى انتظار محاكمته .
والكونتس دى بورت قد ماتت . والمستقبل وحده هو
الذى سيكشف عن سر حادثة السيارة القاتلة هذه . .
فقد وقعت بعد تسليم بوردو . . وقتلت الكونتس للحال
وجرح رينو جرحاً خطيراً . وقيل إنه حادث مدبر .
وروى آخرون أن الألمان رتبوه ، لأن الموتى
لا يتكلمون . فقد كانت النية مبيّتة على قتلهما معاً ،
فنجاة رينو بجلده حظ محض . فهل يكشف لنا يوماً
عن سر هذا الحادث ؟ أم يظل لا يبرح له خفاء .

● إن الكونتس دى بورت ، التى ستذهب فى التاريخ كالمرأة التى خرّبت فرنسا ، لم تكن فاتنة الجمال ، ولكنها كانت موفورة الذكاء ، ذات شخصية قوية جذابة ، تسحر الرجال والنساء على السواء ، وكان الرجل الذكى خاصة يبهر بها . . والنساء اللواتى على غرارها أشد خطراً من الجميلات ذوات البضاعة الظاهرة .

وكانت الكونتس امرأة طموحاً . وكان شعورها بكفايتها ومقدرتها هو الحافز لها على إطلاق شياطين ذكائها يهرولون بها ، بلا انقطاع ، نحو الثروة ، والمكانة الاجتماعية ، والسلطان السياسى . .

● والنساء اللواتى على غرارها أدوات هدم ، لأن أدمغتهن التى تحوك الدسائس ، وشخصياتهن التى توقع الرجال ، لا تعرف حداً للاتزان . . وقد يوفقن زمناً فى بناء واجهة جميلة جذابة ، فيلحظهن المجتمع ، ويبرزن فى عالم السياسة ، وتتهافت عليهن الأوساط البارزة ، إلى أن يزداد بهن الغرور ، وتعصف الفتنة ، ويختل توازنهن ، ويسقطن من حالق ، ومعهن كل من تعلق بهن من الرجال .

ان هذا يكاد يكون هو القضاء المبرم لهذا اللون من النساء . ومن عجب أن تفوز المرأة الطموح بكل هذا النفوذ فى بلاد كفرنسا ، ليس للنساء فيها حقوق سياسية ، ولا تفوز امرأة فى بريطانيا ببعض هذا ، مع المساواة فى الحقوق بين الجنسين ! . بل ربما كان لامحل للعجب إذا قدرنا أن حرمان النساء الفرنسيات من سلطانهن على الجماهير قد أتاح لهن فرصة أعظم لبسط هذا السلطان فى السر . .

وعند ما كانت الكونتس لاتزال شابة ، أعلنت يوما أنه سيكون لها شأن ملكة فى فرنسا . ومضت تعمل عملاً منظماً متواصلاً . ونالت عن طريق الزواج مايلزمها من المال والمكانة . وقد برعت فى شئون المال واستغلاله أكثر من براعتها كزوجة . فأثرت . وساعدها رينو ، فيما بعد ، على توظيف جانب من مالها فى أمريكا الجنوبية !

ولم تسرف هيلين دى بورت فى شغفها بالمسائل المالية لمجرد الكسب المادى ، بل للسلطة التى يخولها اياها ، إلى أن ملّت هذا المحيط المحدود لسلطانها . فتحولت

إلى السياسة . فلم يلبث أن اشتهر صالونها . وتهافت عليه كبار الرجال فى عوالم السياسة ، والدبلوماسية ، والمال . وكان بينهم مسيو « بودوان » المالى أيضاً حينئذ ، والمتلهف على النفوذ السياسى كذلك . . وكان من أصدقائها أيضاً آبتز ، جاسوس فون ربنتروب .

ولم يطل الوقت بالهر آبتز ليدرك قيمة مثل هذه المرأة ونفعها . لقد كانت تطمح فى أن تلعب بالسياسة كما لعبت بالمال ، والطريق العادى ، حديث الصالونات ، لا يؤدى إلى نفوذ كبير ، غير أن الفرصة سانحة للدسائس الخفية ، والاحاطة بالأسرار ، واستجلاء بواطن الأمور ، والعبث بالطامعين والوصوليين .

وهكذا أصبحت الكونتس دى بورت من قواد الطابور الخامس الفرنسى . . وأصبح صالونها مركز القيادة . فكنت ترى بين أعضائه جماعة « فرنسا ـ ألمانيا » والمتحمسين للسلام والاستسلام ، والمعجبين بالنازية وأنصار الفاشستية ، وأعداء الشيوعية . . وبين هؤلاء جميعاً الصائدون فى ماء السياسة العكر . .

● وما من شك فى أن الدافع الرئيسى لحركتها هذه كان الطموح الشخصى ، ولقد أعماها غرورها عن الحقيقة بحيث آمنت برسالة الخيانة التى كانت تذاع من صالونها . . وأصبحت ترى نفسها تسافر فى « بعثات » و « مهمات » ، ولا سيما إلى برلين . . وكانت الدوائر النازية والفاشستية تتملقها ، وتغذى غرورها ، وتهيىء لها أسباب النفوذ التى تتهالك عليه .

وكان من رجالها بودوان . وهو دون لافال ، ذلك الرجل الشره للسلطة والمال . كان « بودوان » من نوع « فيجان » يرى أن فرنسا لن تنهض من عثارها إلا عن طريق العذاب والألم . فهذا التصوف إذا ترجم إلى السياسة العملية ، كان معناه التسليم لألمانيا وإيطاليا ، وإقامة نظام شبيه بالفاشستية .

وكذلك كان كلاهما يدعو إلى « الكتلة اللاتينية » (فرنسا — إيطاليا — أسبانيا) ، التى كان المقصود بها أولاً مقاومة القوة الجرمانية ، فلم تلبث أن تطورت الفكرة ، بحيث أصبحت ترمى إلى تصفية بريطانيا من

البحر الأبيض المتوسط ومن شئون القارة الأوربية!...

وهكذا اضطلعت هيلين دى بورت بمهمة التأثير على بول رينو حتى يضم « بودوان » إلى وزارته، ولعل أعجب جانب فى الأمر انها لم تبدأ برينو نفسه، بل بزوجته!.

واسترعت هيلين دى بورت اهتمام رينو باستحواذها على قلب زوجته. ففتن بها، ووقع تحت تأثيرها، ولم يخلص من ذلك إلا بموتها..

● وفى أيام وزارة رينو الأخيرة، فى « تور » و « بوردو »، كشفت الكونتس عن قناعها، وأعلنت ضرورة تسليم فرنسا... ومع ذلك لم يتردد رينو فى طرد جاملان، ودعوة فيجان لتولى القيادة. وكانت تلك غلطة أخرى، لأن فيجان كان يؤمن بضعف فرنسا وهزيمتهـــا. وقد وضع فى ذلك تقريراً فى ينـاير سنة ١٩٤٠ عندما استدعى من سوريا، وأمّن على كلامه الماريشال بيتان.. وكان من رأيهما عقد الهدنة « بأى ثمن » قبلما تقع الواقعة!.. ولم تعرف الحكومة البريطانية

بأمر هذا التقرير إلا مؤخراً ، وإلا لما قبلت أن تضع جنودها تحت قيادة رجل حلّت الهزيمة فى روحه قبلما يواجه أعداء بلاده . .

وما كان رينو ليستطيع الوقوف على قدميه طوال ما وقف ، لولا مستر تشرشل الذى أوحى إليه الثقة والعزيمة بشخصيته الناسفة كالديناميت . . ولم يكن هناك من يستطيع أن يقف فى باريس ليحمل أعباء امبراطوريتين غير ونستون تشرشل !

وكأن هذه المأساة هى فى الواقع أشبه بقصص الإغريق القدماء التمثيلية . . فترى الدورة الأبدية للخطيئة والعقاب والانتقام ويد القدر . . وكل من شاهدها كان يرجو لو تمّت بالصفح والغفران . .

فلما جاء تشرشل يعرض توحيد الأمتين فى أمة واحدة ، قال رينو : نعم ، ولم تلبث أن قالت له الكونتس دى بورت : لا ، فكانت « لا » هى الكلمة الأخيرة . .



٨

المؤلف : يصف مشاهداته فى احتفال الجمهورية بعيد ١٤ يوليه ١٩٣٩ آخر أعياد الحرية فى باريس

● أين كنت ؟ وأين أنا الآن ؟ ! كيف لى أن أرسم بالحروف تلك الأيام التى عشتها فى جو من الطمأنينة والثقة ، والحرية ، منذ احتفال باريس بعيدها ١٤ يوليه ، وكان أعظم مظاهرة حربية شهدتها فرنسا ، بل شهدتها أوربا بأسرها ، واشـــتركت فيها انجلترا بجنودها أيضاً لأول مرة فى تاريخ ١٤ يوليه . . .

إن ذلك كان بالأمس . . أمس فقط . . كان كأنه منذ بضع ساعات فكيف انقضى عليه فعلا عامان طويلان ؟ ! كيف عشت عامين طويلين فى غيبوبة ؛ فأرانى الآن كأهل الكهف قد صحوت فإذا كل شىء قد تغير : النقود ، والملابس ، والأزياء والأجواء والعادات ، والحكام ، والمحكومون . . كما وجد أهل الكهف أنفسهم سواء بسواء ! . .

أجل ! . . . إن ذلك العيد ، آخر أعياد الحرية فى باريس ، قريب جداً ، وبعيد جداً . . انى أراه كما لو كان قد انقضى منذ ساعتين . . وانى أراه كما لو كان قد مضت عليه أجيال . . إن التغير الذى وقع هائل تقشعر منه أبدان كل الذين أحبوا فرنسا ، فقد انهارت فرنسا ، ولم يغلبها هتلر على أمرها بقدر ما غلبها بعض الذين خذلوها ، وما لأوا عليها عدوها ، ومدوا أيديهم للرشوة ، وتقاضوا ثمن الخيانة ، وألفوا — كما يقول الصحفى الفرنسى المشهور « أندريه سيمون » — أقوى طابور خامس يمكن أن يؤلف فيها له علاقة بالحكومة ، وبالأعمال ، وبالأموال ، وبالدولة ، وبالسياسة ، وبالإدارة ، وبالجيش . . . باع فرنسا بيعاً متواصلا للنازى حتى تمت الصفقة بضياع فرنسا . . .

● وكنت أسكن شارع « بلزاك » عند مقاطعة افنيو فرايدلاند إلى جنب قوس النصر ، فخرجت فى ذلك اليوم فى الساعة الثامنة صباحا ، واجتزت شارع واشنطون إلى الشانزلزيه ، فإذا بأعظم شارع فى باريس

كأنه زقاق ضيق يختنق بالنـاس ، فقد قدروا ماحشر
فى هذا الشارع وحده ، فى ذلك اليوم ، بمليون نسمة . . .
وكنت سأشهد الموكب من مكتب — الأهـرام —
فوق مقهى الفوكيه الشهير ، على الأفريز الثـانى .
ولـكننى لم استطع أن أجتـاز الشارع رغم تذكرتى
الصحفية ، لأنتقل من أفريز إلى أفريز ، إلا فى ساعة ! . .
كان الزحام جنونياً . كان الناس يحسون أن الحرب على
الأبواب بعـد ميونخ وتشكوسلوفاكيا ، قلب أوربا
الخافق ، وكانت فى ذلك اليوم ستقام أعظم مظاهرة
لقوة فرنسا العسكرية والتحالف الفرنسى البريطانى .
وربما يستغرب بعض القـراء كيف يُقطع فى ساعة
ما يُقطع فى دقيقة فأقـول : ان رئيس تحـــرير
« البتى باريزيان » فى ذلك اليوم لم يستطع هذا الانتقال ،
ومـكتبه فى الصف الآخر ، فآثر الصعود إلى مـكتب
« الأهـرام » حتى لايفوته الموكب ! . . ولم تستطع
« مدام فوشيه » قرينة الزميل مراسل « الأهرام » ، أن
تقطع الأفريز إلا بعد أن استنجدت تليفونياً بزوجها ،

فأخذ معه ضابطاً من المدعوين ، ونزلا لإنقاذها ! . .
فجاءت تلك البولونية الكريمة تقـــدم لنا السندويتش
وشرابا طهوراً . . .

كان ذلك يوم الحشر . الدنيـــا قد اجتمعت فى
باريس ، فكنت تجد الأمريكان والإنجليز والبلجيكيين
والبولونيين والروس والتشيك لايحصى عددهم بل كنت
تجد ـــ ويالسخرية القدر ! ـــ فى منصة رئيس الجمهورية
إلى جنب كبار رجال الحرب والسياسـة من انجـليز
وفرنسيين ؛ كنت تجد سفير ألمـانيا . . . ينظر مواكب
الجنود من كافة انحاء الأمبراطورية الفرنسية ، من
عرب وسنغاليين وصوماليين ومارتـكيين ومدغشقريين
وهنود وصينيين الخ . . . وفرسان من « السباهى » على
جيـادهم العـربية وبنادقهم فى أيديهم ، إلى حمـلة البُلط
ذوى الذقون المرسلة ، إلى الدبابات والمدافع الهائلة المضادة
للطائرات . . . كان سفير ألمانيا يشعر بما وراء هذا كله
من قوة تدعمها قوة بريطانيا العظمى التى لاتنفد مواردها
وكان يمثلها حرس قصر بوكنجهام بملابسهم الحمـــراء

الزاهية الأنيقة ومشيتهم مشية الخيلاء ، تتقطع أكف الجماهير تصفيقاً لهم وترحيباً بهم . . وكان مع ذلك مطمئناً إلى ذكاء الهر آبتز وفتنة الطابور الخامس واستعداد بلاده .

وكان ١٤ يولية سنة ١٩٣٩ آخر أعياد الحرية فى أوربا ، وكان آخر يوم سعيد فى باريس .



٩ كلارابوث الكاتبة الامريكية : تحدث عن أوربا فى ربيع ١٩٤٠ . والورد الأحمر فى خط ماجينو . .

● دعنا الآن نتمشى قليلا مع « كلارا بوث » الكاتبة الأمريكية المشهورة ، التى شهدت ربيع أوربا الحزين وعهدها الأخير بالحرية ، وضمنت تجاربها ومشاهداتها كتابها الممتع الصريح : « أوربا فى الربيع » . . .

كان ذلك أنق وأصفى ربيع شهدته أوربا منذ سنوات . . وكان المطر قليلا والسماء صحواً . . وكانت الزهور تنضر فى كل مكان ؛ وتنبثق ، غير عالمة بأنها لاتلبث أن تمحى محواً تحت أطنان الدبابات التى ستنبثق بأسرع وأكثر من الزهور ، وتحول رذاذ المطر فى هذا الربيع المتألق سناء ، سيلا متدفقاً حاراً من الدماء ...

أشجار باريس على جانبى شوارعها الفسيحة ترقص فى ضياء الشمس وتلطف من كآبة المبانى القاتمة . . وغروب الشمس ينفذ من « قوس النصر » بعد أن

يحول الشانزليزيه إلى نهر من الياقوت .. فتحس الفؤاد يضغط بين الجنبين من جمال هذا المنظر وروعته، ومن الويل المنتظر ، وشدته . . .

كانت باريس فى ابريل هى باريس ! . . وكان الأطفال يملأون الحدائق ، أما المقاهى فكانت مكتظة بالشيوخ والنساء يشربون (الأبيراتيف) ويقرأون الصحف « المسخوطة » الحجم ، والفتيات الجميلات يشرقن حسناً وفتنة فى ثياب الصليب الأحمر ، والخاكى . وبذل قيادة سيارات الاسعاف الحربية ، بعيونهن المكحولة بالميل والانعطاف والرجاء فى الغد .. وكانت الحوانيت مفتوحة ، غاصة بالمشترين . . وكانت الشوارع ما زالت تعج بالمارة .. كان ذلك شبح الحرب ، فى هيكل السلم ..

● وفى ٨ ابريل وصلتنى دعوة من مركز القيادة الفرنسية العامة لزيارة خط ماجينو .. هذا الخط الذى كان محل الطمأنينة ، بل مبعثها . . فكان إذا ما قال بعض المتشائمين فى مقاهى باريس : « ولكن افرضوا أن عند هتلر سلاحاً خفياً ! » . . يرد عليهم العقلاء :

« أى سلاح خفى أكثر مما ظهر من دباباته وطائراته فى بولونيا ، وهى بلاد ضعيفة لم تكن وافرة العدة.. إن خط ماجينو من جانب، والأسطول البريطانى من الجانب الآخر ، يضربان على هذا الطاغية حصاراً شديداً ويميتان بلاده جوعاً . . . . »

جئنا إلى حصون ماجينو الهائلة ! هذه المدافع تتحول وتصعد وتنزل وتدور . . وهذه الفخاخ فيها الموت الزؤام . . وهذه الأسلاك المكهربة لا يسلم من يمسها . . وهذه المقابر الصخرية المسلحة من يدخلها لا يخرج حياً . . . هيهات أن يضع عدو على هذا الخط قدماً ! . . يا للراحة ، ويا للاطمئنان ، إن أحداً لا يستطيع هنا أن يمر . .

فقلت لكبار الضباط الذين يصحبوننى ، فى زيارتى :

— أفلا يمكن أن يجد الألمان طريقاً آخر للعبور ؟

فضحك القائد ورجاله ، وقالوا :

— أى طريق آخر ياسيدتى تقصدين ؟ !

فقلت فى حياء :

ـــ هولندا ، بلجيكا ، مثلا ؟ !

فضحكوا ثانية ، بل قهقهوا . وقالوا :

ــ أولاً ، إن الألمان لا يرضون أن يتخذوا عدواً لهم من ثلاثة ملايين جندى هولندى وبلجيكى فوق أعدائهم ، وثانياً أن الهولنديين ، كما بلغنا عن ثقة ، مستعدون لإغراق الأراضى ، ولدى البلجيكيين خط محصن ، هو مصغر خط ماجينو . .

● وفى ٩ ابريل كنت ضيفة الشرف فى منتدى ضباط الفرقة ١٦٤ بخط ماجينو . . وظهر فجأة عامل الراديو ، شاحب الوجه . وسلم القائد ورقة مكتوبة بالقلم الرصاص فنظر إليها بجـــد ، وقد ابيضت عيناه ، وقرأ بصوت مرتفع ، برقية لاسلكية من نيويورك تقول : المواصلات مع البلاد السكندينافية قد قطعت ، فلا يمكن إثبات الأنباء التى أذاعها وزير النرويج من أن بلاده قد أصبحت فى حالة حرب مع ألمانيا .

ثم برقية من باريس تقول : إن الجنود الألمانية قد احتلت برجن ، وأن الحكومة النرويجية قد غادرت أوسلو .

ثم برقية من أمستردام تقول : إن نحو خمسين سفينة حرب قد غادرت الموانىء الألمانية أمس متجهة إلى الشمال ، وأن القوات الألمانية فى الساعة الحادية عشرة كانت فى « الكاتيجات » تتجه نحو الشمال الغربى . .

وكان صمت .. ونظر بعضنا إلى بعض فى وجوم وتهيّب . . ثم بعد فترة طويلة ، قال القائد : « هذا شغل انجلترا ! . . فإن لديها الأسطول ! » ونظراً لأنه قلّ بين الضباط الفرنسيين من كان يعرف أين هى « أوسلو » ويندر بينهم من يعرف أين « كاتيجات » فقد وجدوا أنهم عاجزون عن التحدث فى موضوع غزو الألمان للنرويج . . وهمس فى أذنى ملازم ظريف : « أرأيت ؟ أن الرجل الفرنسى هو ذاك الذى يطلق لحيته ، ويأكل كمية كبيرة من الخبز ، ولا يعرف الجغرافيا » !.. وعلى ذلك لم تكد تذكر النرويج حتى أغفلت وانتهت . . . وبدأ الضباط يدلوننى على مهارة جنود الاستطلاع الشجعان المتطوعين لاقتناص الأسرى

الألمـان من الشقة الحرام بين خطى ماجينو وسيجفريد .
ثم لمـا جاءوا يودعوننى قدموا إلىّ طاقة من الورد
الأحمر ! . . والله وحده يعلم أين وجدوا ورداً أحمر
فى خط ماجينو ! . . ولـكن هؤلاء هم الفرنسيون . .
يعرفون أنهم حتى ولو كانوا فى القلاع والحصون كيف
يقدمون للسيدات ورداً أحمر ! . .



١٠

أندريه موروا :
يحدث عن الانهيار المعنوى . . هرب ولا هرب ! .
الوقت كالسيف . النظام البرلمانى ووحدة الأمة .

● كان ذلك على الباخرة Le Revenge « الثأر » . . . فى العودة إلى أمريكا . . .

وقد خرجت فى الفجر ، ساعة نوم مئات الأطفال الغاصة بهم الباخرة والمرسلين من انجلترا إلى كندا ، لأتمتع بجمال المحيط الصامت ، مضطجعاً على ظهر الباخرة ، التى كانت بلونها الرصاصى القاتم ، وشدة آلاتها القوية ، كأنها تتحدث معنا فى تلك الساعة الباكرة بلسانها الميكانيكى ، وأصواتها الناطقة . . وكانت المدمرات التى تحرسها تجرى من حولها كما تجرى كلاب الصّيد حول سيدها ، وترى إحدى هذه المدمرات أحياناً ، تتخلف ، لتبدو من بعيد جداً ، وهى تطارد شبح غواصة . . .

وفى ذات صباح جاء للجلوس إلى جانبى الكاتب الإنجليزى « ن . ا » . . الذى أقدر تآليفه ، وكان فى طريقه إلى الولايات المتحدة لإلقاء محاضرات .

فقال لى : « لقد علمت أنك فى الباخرة وأستأذنك فى التحدث إليك لأن فى هذه المأساة الفرنسية المروعة أشياء كثيرة تعذر علىّ فهمها . . ولست أشير إلى الهزيمة الحربية ، التى تؤوّل بقلة استعداد بلادينا وسوء الخطة العسكرية ، ولكنها الكارثة التى تدهشنى ، والتى أريد أن أسألك فيها إذا لم يكن فى ذلك ما يشق عليك ... »

فقلت له : « سل ما بدا لك ، وإن كان الموضوع يؤلمنى ، ولكنى سأحاول أن لا أفر من أفكارى .... »

● — أترى من الحق القول إن روح الجيش والشعب الفرنسى كانت فى سنة ١٩٣٩ دونها معنوية سنة ١٩١٤ ؟ ! وأن إرادة النصر كانت أضعف ؟ . .

— إن وحدات كثيرة من الجيش قد حاربت بقوة ، ولكن الواقع أن الشعب الفرنسى فى مجموعه لم يكن متحمساً لهذه الحرب تحمسه فى سنة ١٩١٤ .

ــ وما السبب ؟ . . إن مصير فرنسا كان معلقاً في الحالين ، وما يهددها في سنة ١٩٤٠ كان أعظم . .

ــ هذا صحيح ، ولكن فرنسا سنة ١٩١٤ كانت بلاداً متحدة نسبياً ، أما فرنسا سنة ١٩٤٠ فكانت بلاداً مفككة العرى موزعة القلوب . . وكان الاتحاد في سنة ١٩١٤ بين الفرنسيين صادقاً أمام العدو . كان ذلك عهد الاتحاد المقدس . فظل الاشتراكيون والرأسماليون ، الراديكاليون والملكيون ، ظلوا مدى أربع سنوات بنعمة الله إخواناً . ولكن السلام وضع حداً لهذا الصفاء . فان الثورة الروسية قد نفخت في الطبقة العاملة أطماعاً أشعبية ، وشملت طبقة الموسرين مخاوف شديدة . وقد زعم بسذاجة بعض أهل هذه الطبقة ، خطأ وضلالا من تصورهم ، أن الفاشستية ثم النازية ستكون حائلا دون الشيوعية . فكانت سلطات روما وبرلين الديكتاتورية تعارض حكومة موسكو ، مقدمة لتعاونها جميعاً ! . . . وكانت كلها تنفق نفقات طائلة على دعايتها، محاولة أن تتسلط على الطبقة الفرنسية

العاملة . فهـذه الأيدى الأجنبية قد حفرت من جديد حفرة عميقة شطرت فرنسا شطرين .

ــ فمتى انتهى إذن « الاتحاد المقدس » ؟

ــ عقب الحرب الماضية مباشرة . وفى سنة ١٩٢٤ رأينا فى الانتخابات التشريعية الكتلة الوطنية وكتلة اليسار تتعارضان . . . وفى سنة ١٩٣٤ وقعت معارك فى الشـــوارع يوم ٦ فبراير دلت على تأصل الشر وخطـورته . . وزادت رقعة الشر اتساعاً بعد ذلك فى سنة ١٩٣٦ عندما جرى احتلال المصانع والمعامل والورش والمحال التجارية ، مما زهّد الناس الذين كانوا يعطفون على تلك النظم . . . أما أن اصلاحات كانت لازمة لتحسين حال العمال فما فى ذلك شك ، ولكن الطرق التى استخدمت كانت عنيفـــة سيئة وفى غير محلها . . إن فرنسا بلاد الأبواب المقفلة والنوافذ المغلقة فاقتحام الملكيات الخاصة بالقوة قد أثار شـــعور الاستنكار . وإلى جانب طابور خامس تكوّن جيش من المتذمرين ، أدى ـ من حيث لا يدرى ـ خدمة

للدعاية الأجنبية بتأييدها ، وفى اليوم الذى أصبحت فيه روسيا حليفة لألمانيا ، أقبل الشيوعيون يزيدون فى ضخامة ذلك الجيش الهائل المفسد . زد على هذا أن أسباب هذه الحرب غير جلية فى نفوس المحاربين . أما فى سنة ١٩١٤ ، فقد كانت فرنسا قد غزاها العدو . فى حين أن فرنسا هى التى فى سنة ١٩٣٩ قد أعلنت الحرب بمناسبة « دانتزج » وهى بلدة يجهل كثير من الفرنسيين موقعها أو حتى مجرد وجودها ، وكان الأكثرون معرفة وإحاطة بالأمور يدركون أن هذا لم يكن إلا شكلا ، فلو أننا تركنا حلفاءنا يلتهمهم عدونا واحداً بعد واحد ، لجاء بداهة دور التهامنا نحن أيضاً . . ولكن آخرين كانوا يؤكدون أن انجلترا هى التى ساقتنا إلى هذه المغامرة وأن الحرب كان يمكن اجتنابها .

● ولم تكن الطبقة البرجوازية راضية عن هذه الحرب أيضاً كالطبقة العمالية ، ومع ذلك مشت إليها تبعاً للنظام العسكرى والتقليد الوطنى القديم ، ولكن دون حماسة . فمنذ عشرين عاماً وهى تقرأ فى الصحف شرّ ما يقرأ

عن النظام الحالى ورجال السياسة والوزراء وأولئك الذين سيصيرون اجمالا زعماء الحرب . وكان ذلك تحضيراً خطراً . ولا بد للحرب من الإيمان . وبالطبع ليس هذا النفور أو « الاشمئناط » سبب النكبة الرئيسى ، فلو أن جيوشنا كانت مزودة بالعتاد من مدافع وطائرات ودبابات ، وكانت قد فازت فى الأيام الأولى لتحولت الروح . . . فإن فرنسا أمة عسكرية قديمة . وفى دمها المواقع الظافرة مثل « فالمى » و « استرليتز » . وفى قلب أكثر الناس تمرداً فيها تحمس خفى على أهبة الازدهار . وكل فرصة أتيحت لجنودنا للنضال انتهزوها وبرزوا فيها . بيد أن التقهقر والهزيمة قد أطلقا كافة ضروب التذمر والتمرد والأحقاد . .

— إنك تقول يا مسيو موروا « إن جيوشنا لو كانت مزودة بالعتاد . . » فهذا النقص الفاحش فى الطائرات والدبابات هو عندك سبب البلوى الأول . . فلنسلم جدلا بذلك ، ونسألك لماذا كانت تنقصكم الذخيرة والعتاد ؟

● — أولاً لأن القيادة العامة أخطأت فى المبـــدأ العسكرى بعدم التوصية على الطائرات والدبابات والمدافع المضادة للدبابات والمضادة للطائرات ، التى كان لا غنى لنـا عنها . . . ثم لأن العمال ، منذ سنين عديدة ، يشتغلون فى مصانعنا شغلا رديئاً وشغلا ضئيلا . . . وأخيراً ، لأن بعض رجال الصناعة قد شغلوا بمصالحهم أكثر مما شغلوا بنجاة فرنسا ، فقاموا بحملات للحيلولة دون شراء الذخائر من الخارج ، فى حين كانوا هم أنفسهم عاجزين عن إنتاجها . . . فلما أرادت الحكومة قبل الحرب أن توصى على طائرات فى الولايات المتحدة لم تسمح لها اللجان البرلمـانية ، بسبب تلك الحمـلات الدنيئة ، بشراء أكثر من مائة طائرة ، وهو رقم من الضآلة بحيث لا يحتاج إلى تدليل . . .

— ولـكن لمـاذا ظهرت السلطات العامة بهذا المظهر الضعيف مع رجال الصناعة والأعمال ومع العمال على السواء ؟! . فإن البلاد متى كانت فى خطر فإن المصالح الشخصية والأغراض الذاتية يجب أن تتـــلاشى . .

وواجب الحكومة أن تفرض عليها الصمت والاختفاء...
فلماذا كانوا فى بلادكم لا يحكمون ؟ ! فإن أشد الناس سذاجة كان يرى الحرب آتية لا ريب فيها ، كما يرى قوة ألمانيا فى عتو وازدياد.. فماذا تقول يامسيو موروا ؟
— فى سنة ١٩١٤ لم تكن ثمة دعاية للأعداء ، أما فى سنة ١٩٣٩ ، فقد عملت ، بمهارة شيطانية ، منذ خمس أو ست سنوات . . . لأن الديمقراطيات هى نظم يكون فيها الرأى العام هو الكل فى الكل ، ولا يمكن عمل شىء من دونه . . . راجع الحوادث فى فرنسا ، وفى انجلترا ، وفى الولايات المتحدة ، تجد أن الرأى العام فى هذه البلاد خدع بطريقة مروعة ، فلم يدرك الخطر ، ولم يطالب بالتسليح إلا بعد فوات الأوان...
— إن زعماءه كانوا يستطيعون هدايته .
● — لسوء الحظ أن زعماءه السياسيين قد تعودوا أن يستشيروه لا أن يقودوه . فنحن نراهم ينحنون على الرأى العام ، يسألونه ، ويسألون أنفسهم كيف يمكنهم أن يرضوه ، وفى الوقت نفسه أن يقنعوه بأنه

خير لأمة أن تعيش من أن تموت . . أما زعماؤه العسكريون فهم تابعون للزعماء السياسيين ولا يجرأون على مخالفتهم ولا على استعجالهم . . وما دام ليست هناك أوامر جلية دقيقة صارمة فإن موظفى المكاتب والخبراء يفسحون لأنفسهم فى الوقت . . . ولم يكن عندنا فى فرنسا أحد يعد نتائج العمل ويحصيها يوماً فيوماً . . .

● أما فى ألمانيا فإن هتلر يقول : « أريد أن أكون فى باريس فى ١٥ يونيه . . ولهذا لا بد من بدء الهجوم فى أوائل مايو . . ولبدء الهجوم فى أوائل مايو لا بد لى من دبابات جديدة فى أوائل أبريل » . . وعلى ذلك يضع خطته للعمل ، والويل لمن لا ينفذها ! أما عندنا ، فماذا يجرى ؟ . . يسألون الخبراء : « كم من الزمن يلزم لإنتاج كذا من الطائرات فى الشهر ، أو كذا من الدبابات ؟ » . . فيحسب الخبراء الحساب فى خلوتهم ، كما يطيب لهم ، ويحددون المدى ، وحكمهم على العين والرأس . . فننظم حسابنا تبعاً لرأيهم . .

فهى الحرب التى يجب أن تحسب حســـاب الفنيين ، وليس الفنيون هم الذين يجب أن يحسبوا حساب المطالب والاحتياجات الحربية ! . . . والنتيجة : أننا أعددنا لعام ١٩٤٢ حرباً انتهت فى ١٩٤٠ »

— وبالإجمال ، يا مسيو موروا ، قد نسيتم ، أو نسينا ، فى العمل أن عامل (الزمن) هو من أهم العوامل . . .

● — قل إنه أهم عامل . . . إن قوة هتلر الكبرى هى عمل الأشياء بسرعة والتصرف بينا نحن نتشاور !.

— وهل تعزو هذا البطء للنظام البرلمانى ؟

● — إنى أعتقـد أن زعيما جريئاً ، مشغولا بنجاة بلاده أكثر منه بمركزه السياسى ، يستطيع أن يفرض على البرلمـان ، بل وعلى المكاتب النـائمة ، السرعة اللازمة . وها هو ذا تشرشل فى انجـــلترا يبدو أنه قد وفق إلى ذلك .

فالقانون الذى يعطى الحكومة البريطانيـة سلطات لا يملك أى ديكتاتور أكمل منها ، قد تم التصويت عليه فى بضع دقائق . . واـكن الواقع أن النظـــام

البرلمانى ، وهو الذى ابتكرته انجلترا ، يسير فيها خيراً منه فى الأمم الأخرى . . .

— ولماذا لا يسير النظام البرلمانى فى فرنسا سيراً حسناً ؟ !

● — لأسباب عدة . . . أولها أن النظام الفرنسى والنظام البريطانى ليس بينهما شىء مشترك إلا كلمة (برلمان) . . . فالحقائق مختلفة فى الجانبين تمام الاختلاف . وعندما جاء البروفسور باركر ، من جامعة كمبردج إلى باريس ، ألقى علينا فى السوربون محاضرة رائعة فى النظام السياسى فى انجلترا . فبدأ بهذه العبارة : « إن انجلترا هى ديمقراطية لأنها أرستقراطية » . . وهذا التناقض هو حقيقة تاريخية ، فنى انجلترا كان البرلمان هو بيت سادة الأقاليم قبل أن يكون بيت الأمة بأجمعها .

وقد أصبح فى نظرهم ، على مدى الأجيال ، نادياً هو أرقى الأندية وأدعاها إلى التوقير ، والإجلال ، له عاداته القديمة الغريبة ، وهو حامى حرياتهم . . .

وان من تقاليد الكثير من الأسر الإنجليزية النبيلة ارسال ولدها الأصغر إلى مجلس العموم . وهناك تلتقى خلاصة المتعلمين القدماء بممثلى الخلاصة الجديدة التى تخرجها كل بلاد عظيمة فى كل جيل ، وونستون تشرشل ينتسب إلى أسرة مارلبروه العريقة ، ولكنه جمع فى وزارته أبناء العمال مثل أرنست بفان ، وهم خيرة الوزراء . وبذلك تنتفع حكومة الشعب بتجارب النخبة المختارة ، ولا تصطدم بمقاومتها وغيرتها . .

أما فى فرنسا فعلى العكس من ذلك ، من زمن طويل (وهذا أشد أسباب شقائنا) فإن الطلاق قد وقع بين نخبة البلاد والنظام البرلمانى . فلا قوى البلاد الفكرية ولا قواها الاقتصادية ممثلة تمثيلا واسعاً فى البرلمان الفرنسى . وبذلك انتهى الأمر بهذا البرلمان أن بدا لرجال يقومون بدور عظيم فى حياة الأمة كما لو كان أداة اضطهاد . وانى أسلم بأن هذا كان من عمل دعاية مريبة ، ولكن كان فيه نصيب من الحقيقة .

قال محدثى ، الكاتب الإنجليزى ن . ا :

● — يقينا أنه فى اليـــوم الذى يصبح فيه نضال الأحزاب نضال طبقات ، فإن الحكومة البرلمانية لا تستطيع مع ذلك حولا فتتعطل . فما الذى يقتضيه عادة هــــذا الشكل من الحكومات ؟ ! إن حزباً يستطيع أن يتولى الحكم مكان حزب آخر ، إذا كانت هذه هى الرغبة ، المعبر عنها بحِرِّية من الأغلبية ، وأن الأقليـة قبلت ، بحِرِّية ودون عنف ، أن تُحكم بواسطة الأغلبيـة خلال مدة معينة . فما هو الشرط الضرورى الكافى لرضاء الأقلية واستسـلامها ؟ هو اليقين بأن تعامل ، هذه الأقلية ، معاملة عادلة على يد الأغلبية . فلا يجوز فى حكومة برلمـانية ديمقراطية أن يكون وصول حزب إلى الحكم معتبراً من نصف البلاد الآخر بمثابة بداية اضطهاد .

وفى الولايات المتحدة نرى الديمقراطيين والجمهوريين ، وفى انجلترا الأحرار والمحافظين يستطيعون أن يقبلوا دون خشية تناوب الأحزاب للحكم ، وهو اليوم أيضاً حقيقة واقعة بين المحـافظين والعماليين البريطانيين ،

لأن حزب العمال ، مع دفاعه عن مصالح الأيدى العاملة ، يابى أن يكون حزباً ثورياً .

● ــ أما عندنا فى فرنسا ، فإن عمل الجهاز البرلمانى كله قد أصبح زائفاً منذ وصول الحزب الاشتراكى إلى الأكثرية فى البرلمان ، ثم ماكان منه طبقاً لذلك ، وقد وصل إلى السلطة ، من تحالف مع الحزب الشيوعى . . . ولا يمكن أن يطلب من أغلبية الفرنسيين أن يقبلوا ، كحدث طبيعى ، أن يصل إلى الحكم رجال يعترف برنامجهم بأنه هدم لهذا النظام ، معلنين استعدادهم لوضع بلادهم تحت أمر حكومة أجنبية . . (يقصد روسيا الحمراء) ، فمنذ ما بدا أن الخوف والشهوات ، فى المعسكرين ، يتغلبان على محبة الوطن والحرص على وحدته ، أصبحت الديمقراطية الفرنسية غير قادرة على أن تفوز فى الحرب . .

وفى هذا قال موسولينى فى المقدمة التى وضعها لكتاب « الأمير » من وضع مكيافيلى : « إن الإنسان حيوان ردىء للغاية . لا يمكن فهمه إلا إذا بدأنا

باحتقـاره : وكل الوسائل مشروعة للحكم لأنه لولا الطاغية لسقطت البـــلاد فى الفوضى ، والفوضى شر من الطغيان » ! . . .

قال المستر ن . ا .

— إن الذين احتقروا الإنسان قد انتصروا اليوم . . ولـكن أهو انتصار نهائى ؟ ! انى لا أعتقد ذلك . . .

فالإنسان حيوان قاس حولته الشرائع الإلهية والبشرية شيئاً فشيئاً إلى الحضارة . فنال حرياته بالعمل والنظام . وهو لن يحتفظ بها إلا بالعمل والنظام . ولكى تعيش الديمقراطيات وتفوز ينبغى لها أن تذكر الفضائل التى سمحت لها بأن تنشأ فى الوجود . .



١١

المؤلف يتحدث عن: ذكريات «الطريق الى بوردو..» و د. فريمان و د. كوبر يصفان باريس قبل الغزو ومرح الفرنسيين ثم الاجتياح وطوابير اللاجئين والذعر والفرار

● إننى أعرفه ، هذا الطريق ، الذى كان يوماً جميلا ، من باريس إلى بوردو ! . .

من ذا الذى يزعم أنه هو الذى قطعه هذان الكاتبان الإنجليزيان ، على شوك القتاد ، تحت وابل من القنابل ، ورصاص المدافع الرشاشة ، وزحف أفواج المهاجرين ، فى وسط الجوع والظلام ، والحزن والآلم ، والدم والموت ؟ !

كان طريقى ، منذ بضع سنوات ، مفروشاً بالزهور . زهور الطريق ، وزهور شبابى . . . كانت الشمس مشرقة ، والسلام سائداً ، والنفس راضية ، والقلوب من حولها لاهية ، لا تعرف فى الحياة غير الحياة والحب ! . .

أجل . . كان ذلك فى ربيع العمر ، فى فصل

الصيف ، عندما اتجهت إلى شاطىء بوردو وكان فى
تلك السنة المصيف الذائع en Vogue فتعرفت فى القطار
بقسيس ظريف ملأ أيامى بهجة وأنساً . وحتى اليوم
ما زلت أسائل نفسى هل كان خالصاً للدين ، أم كان
خالصاً للدنيا ! . فلعله كان يوفق بينهما توفيقاً عجيباً
لا يتاح إلا لمن عرف أسرار الروح وأسرار الجسد !..

كان لا يلتى شيخاً أو طفلا أو سيدة فى « البنسيون »
أو على البلاج أو فى الكازينو إلا ويبادره بالتحية . .
وكان يصحبنى معه فى غدواته وروحاته ، ولم نلبث أن
عرفَنا الجميع ، هو بمسوحه السوداء ، وأنا ببشرتى
السمراء ! ، هو بابتسامته الكريمة التى يغدقها بغير
حساب ، وأنا بنظرتى الشرقية النهمة التى تنهب كل
ما حولها ، كأنها تريد أن تعوّض ما فاتها وتختزن
لما وراءها من السنين العجاف ! . .

وكأن ذلك الشاطىء شاطىء الأحلام . . جئنا من
أقصى بقاع الأرض ، ندفن فى رماله حقائقنا ومشاغلنا . .
جئنا من ضفاف النيل ، والتايمز ، والمسيسبى ، والرين .

نغسل أجسادنا ، ونصقل أرواحنا ، فى مياه خليج بسكاى ، ومن حولنا الحور العين ، ينشق عنهن الماء ، فكأن كل حورية هى « أفروديت » تنشق عنها « محارتها » ، وتخرج إلى الأرض ليشقى بها الناس ويسعد بها الناس ! . . .

وكان من حولنا أيضاً صبيان وبنات فى سن العاشرة . . حملوا الآن السلاح ، وحملوا الهموم . . كانوا ذرية جيل تخضب بالدماء ، وما كادوا يبدأون التنعم بالهدوء والصفاء ، حتى جاء الأشرار بآلات الفتك والدمار ، فإذا بقلب أوربا شعلة من نار . . وإذا بالجحيم تتلظى فى أرض كانت كأنها وقف على الأبرار ! . .

● هذا الكتاب الضخم ، هو حكاية رجلين انجليزيين تطوعا كسائقين لإحدى سيارات الاسعاف المخصصة للجرحى فى ميادين القتال مع الجيش الفرنسى عشية المعركة ، أو بالأحرى المذبحة ، وراء نهر المارن . نرى فيه وصف باريس فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، وما تلاه من أزمات شداد .

ولم يكد المؤلفان يغـــادران باريس حتى ألفيا نفسيهما يخوضان معركة سواسون المشهورة ، ويتيهان فى غمارها . ثم ظلا يتقهقران مع زملائهما كلما تقدمت الجبهة الألمـانية ، ينقذان الجرحى وينقلانهم فى ظروف تكاد تكون مستحيلة . والصورة التى رسمـاها لحالة الذعر الذى أصاب غير المحاربين وحطم روح الشعب الفرنسى المعنوية ، وجعل كل الحركات العسكرية ضرباً من المحال ، هى صورة نادرة لأنها الصـورة الأولى المأخوذة من صميم ذلك الانـكسار الذى زلزل العالم .

ثم يجىء وصف الطرق ، التى كان عليهما العمل فيها ، تهاجمها بلا انقطاع أسراب من الطائرات المغيرة وتمطرها بقنابلها ، فإذا بها تنقلب رأساً على عقب ، وإذا بالمدن ألسنة من اللهب .

وظلا على ذلك أربعة أسابيع كأنها أربعة قرون . حتى فرا من فرقتهما إلى بوردو بعد عقد الهـــدنة بأربع وعشرين ساعة ، واكتشفا بطريق الصدفة المطلقة نسافة بريطانيـة حملتهما إلى انجلترا . غير أن متاعبهما

لم تقف عند هذا الحد ، فإن منظر انجليزيين يرتديان الثوب العسكرى الفرنسى لم يكن أمراً مالوفاً ، فأثار الشبهات حولهما ، وأدى إلى القبض عليهما . ونرى فى الكتاب بعد ذلك وصفاً لانجلترا اليوم ، كما تبدو لرجلين عاشـــا فى باريس الأمس ، وعرفا بالتجربة ما للحرب وويلاتها من أثر فى تحطيم الحياة المدنية وتدمير العمران .

● نحن فى باريس ، فى آخر مارس سنة ١٩٤٠ . . وقد كاد اليأس ينال منا ، لأنهم حتى اليوم لم يقبلوا تطوعنا ، وكنا نعزى أنفسنا بأنهم سوف يفعلون عندما لا يبقى لديهم إلا الذين فى سن اليأس ! . .

لقد عاد الربيع إلى باريس فجأة بعد شتاء عنيف قارس أصاب العاصمة بالشلل ، لم تشهد له من قبل مثيلا . فعاد إليها ألوف من الناس ، فردّت إليهم الحياة ! ولأول مرة منذ أكتوبر راح الصبية يلعبون فى حدائق التويلرى واللكسمبورج . وغصت مشارف المقاهى وازدحم المتنزهون تحت شمس الشانزليزيه ،

وغاب بولونيا ، وفرساى . وازدهرت بساتين أفنو « جبرييل » . . وأينعت الأشجار واخضرت عن ذى قبل . . لقد زاد حنان باريس القديم إلى الجمال ، واستردت نساؤها شجاعتهن ، فعدن إلى الأثواب الملونة والقبعات البهيجة . وهكذا حصنت باريس نفسها بالذوق والمرح كأنها تتحدى الدمار . ووراء كاتدرائيـــة نوتردام ، وفى باحة اللوفر ، طفق البستانيون يملأون فرش التربة بالزهور . وعلى مقربة منهم ، أخرجت الكوميدى فرانسيز رواية « سيرانودى برجراك » الحماسية إخراجاً طريفاً ، وفى الأوبرا موريس شفالييه وجريسى فيلدز ، تصفق لهما الجماهير كل مساء . . .

وما زال الباريسيون يتعشون فى المطاعم كعادتهم ويتزاحمون على ما ظل مفتـوحاً من دور اللهو . . . والأطفال ، ومن ورائهم أمهاتهم ، ترن ضحكاتهم العالية فى حديقـة اللكسمبورج ، إذ يشاهدون « الأراجوز » يمثل هتلر وجورنج تمثيل الساخر المستهتر . وفى كنيسة المادلين الشهيرة ما زال قداس الظهر يغص بالمصلين .

بل أن الخيل ما برحت تجرى فى سباق اللونشان .
وفى كل أسبوع تقام حفلات رياضية تزيد الوفاق الانجليزى قوة وتدعيما . وكان الأصدقاء يقبلون من لندن فى زيارات آخر الأسبوع ، والنساء الانجليزيات فى « بار ريتز » ، المزخرف حديثاً ، يلبسن ثيابهن العسكرية ... فقد كانت لا تزال هناك « باريس الليل » بالنسبة لهم ، إذ أن باريس لديهم دون لندن ظلاماً ، كما أن سماءها أقل اكفهراراً ! .

● يبد أن الحياة لم تكن فى الحقيقة طبيعية للغاية . كان الفرنسيون يسايرون الظروف ويلبسون لكل حالة لبوسها . وكانوا يقضون ثلاثة أيام فى الأسبوع بغير لحم ، وثلاثة أيام بغير خمر ، وثلاثة أيام أيضاً بغير فطائر أو حلوى . لذلك لم يكن يستطيع هواة « البابا بالروم » أن يتناولوه فى غير يوم الأحد ! وكانوا فى المطاعم لا يقدمون إلا صحناً واحداً من اللحم وزنه ۱۰۰ جرام ، ولا يقدم الزبد إلا مع السردين أو الجبن ، وعز البن والشاى ، وارتفعت

أسعارهما ارتفاعاً فاحشاً ، أما الحصول على الفحم وخشب التدفئة فكان متعذراً . وحددت التدفئة المركزية « شوفاج سنترال » . ولم ينقذ الخلق من ويلات القر إلا انتهاء الشتاء بغتة . . . ولم يعد يوجد من التبغ أو السجائر إلا الفرنسى . . وأغلقت حوانيت عديدة جداً أبوابها ، كما ألغيت محطات كثيرة من المترو . . وخفضت سيارات الأوتوبوس تخفيضاً كبيراً . وأصبحت « التاكسيات » نادرة ، أما فى الليل ، فلا وجود لها إطلاقاً . وحددت الساعة العاشرة مساء لإغلاق كل المقاهى والملاهى ، ثم مدّ الموعد إلى الحادية عشرة ، ثم منتصف الليل . وكانت تسمع ، فى الليل والنهار ، المدافع المقاومة للطائرات وهى تطلق نيرانها .

● أجل . . كانت باريس تتحدى الدمار . كان (أهل المؤخرة) يحاربون على طريقتهم لتبقى شعلة الثقافة والحضارة متأججة ، وحتى يحتفظوا بجوّ من الهدوء والصفاء تشتد به عزائم رجالهم الذين عادوا فى أجازة من ميادين القتال .

طبعاً ، كان العيش فى باريس متعة ، فإن المدينة نفسها تجعل الحياة متاعاً ، وكان الفرنسيون هم هم ، لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، وخيل إلينا أنهم يجاهدون ليبقوا بعيدين عن جو المعركة ، وليحتفظوا بصفائهم وراحة بالهم . كانوا يريدون أن يستدبروا الحرب لا أن يستقبلوها . كانوا يمقتون الحرب ويمجون اسمها ويشمئزون من ذكرها . وكانت أمنيتهم الكبرى أن يكسبوا الحرب ، ولكنهم كانوا يتمنون لو ألهموا كيف يكسبونها ، وبقدر ما كانوا زاهدين فى النضال السياسى ، كانوا يجهلون ما يخبئه القدر من النضال العسكرى . . وكان مصيرهم بين هذين النضالين ، عندما يلتقيان ويصطدمان ، معلقاً بخيط !

● وكان هناك كذلك بداهة بضعة ملايين من أحزاب الشمال المتطرفين ، داخل الجيش وخارجه . . من أنصار الشيوعيين ، كأنهم وحدة مستقلة عن بقية الأمة ، وليس من السهل حملهم على تطليق مبادئهم الخطرة هذه بمجرد وضع نوابهم فى السجن ، كما فعلت

الحكومة ، كما أنه كانت ثمة أيضاً المصالح المادية لطوائف أخرى لم تكن مستعدة لتضحى بحقوقها وامتيازاتها لأن المصلحة عندها فوق الوطن .

● والفرنسيون شعب متناقض متباين . فهم يبدون على خساسة وأنانية وشراهة ، ثم هم من جانب آخر كرماء فى أفكارهم التى يغدقونها على العالم إغداقاً استفادت منه انجلترا نفسها فى القرن الماضى والحاضر . . وقد عرفوا من ويلات الحرب ما لم يعرف الانجليز ، فقد غزاهم الألمان فى عام ١٨٧٠ وأثخنوهم بالجراح ، ثم اجتيحت بلادهم كرة أخرى فى ١٩١٤ ، وضرب جانب عظيم من بلادهم وحصدت زهرة شبيبتهم على أيدى هؤلاء الألمان ذاتهم . أو ليس ساسة فرساى ، هم الذين أبوا على كلمنصو الضمانات الطبيعية للأمان ! لقد حرم النمر مما طلب ، وجاء الجيل الثانى من الفرنسيين فدخل الحرب الحاضرة بعد عشرين سنة من العجز والقصور .

● ماذا تغنى الآن إثارة أسباب سقوط فرنسا وانهيارها ،

فالحقيقة لا تعرف الآن كلها والجمهورية الفرنسية الثالثة كانت متداعية من أصلها ، بل كانت طفلا عليــــلا منحوساً منذ مولده .

وكان الفرنسيون من كل حزب يعترفون بأن أيامها معدودة ، وإن كانوا جميعاً معتزمين النضال دفاعاً عنها ، حتى يتم القضاء على المعتدى الذى دنس حرمتها واجتاح أرضها ، وكان المفهوم أن كل الخـلافات يجب أن تدفن ما دام الوطن فى خطر . فلا تعلو جماعة على جماعة ، أو تظفر طبقة من الأمة بطبقة ، على حساب تسليم البلاد . لذلك كانت كل إثارة لأسباب المأساة تعد نافلة .

● على أنه كانت وراء الصفوف قوتان هائلتـــان متضادتان . . وكانت كل منهما تتربص بالأخرى ، وترجو انحلالها . وكأنهما اجتمعتا على شىء واحد هو الموقف السلبى ، وعدم الرغبـــة فى الهجوم ، والضن بالنفس البشرية ، والاعتزاز بالحياة . . وإن كانوا جميعاً يعرفون فى صميم قلوبهم أن العدو سيجد ساحة للقتال . فكانوا

يتساءلون واجمين : « أى طريق يتخذه هتلر » ؟ !

وفى تلك الأثناء كان الجنود يلتمسون كتباً وصحفاً تشغلهم وتسليهم فى خموطم وكسلهم وراء خط ماجينو . .

حقاً لقد كانت « حرب أعصاب » بل أشد الحروب تأثيراً فى الطبع الفرنسى الفوار . . . وانحصر الجهاد فى تبادل بعض القذائف فى الأرض الحرام بين خطى ماجينو وسيجفريد ، وبعض عمليات الاستكشاف التى تعود ببعض الأسرى . . وظل النشاط محصوراً فى سلاح الطيران الملكى البريطانى والأسطول الانجليزى ، اللذين صارا مضرب الأمثال .

ولم يكن أحد يتوقع حلا سهلا للمشكلة ، ولم يكن أحد يتوقع أيضاً هجوماً ساحقاً على الدانمرك والنرويج ، فقد كانت المفاجأة ساحقة ، ولكن لم تلبث انتصارات الأسطول البريطانى أن أعادت إلى النفوس تدريجاً الاطمئنان ، والثقة بالأمان . .

ولما وصلت نسخة جريدة التيمس التى تعدّ فيها الشعب البريطانى للانسحاب المؤلم المحتوم من « تروندهايم »

اختفت للحال من أكشاك باعة الصحف فى باريس ، وظل الخبر مخفياً رسمياً عن الجماهير حتى لم يعد من اذاعته بد ، وأنقذ عمل هتلر المفاجىء فى النرويج وزارة رينو من السقوط ، وإن كان الناظر اليوم إلى حقائق الأمور لا يسعه إلا أن يتساءل أو لم تكن يومئـــذ قد انتشرت روح الخيانة والهزيمة ؟

● فقد عادت إلى الأذهان كلمة الجنرال شارنون ، التى وإن كذبت فى عام ١٩١٤ فقد صدقت فى عام ١٩٤٠ ، : « إن خلقنا الوطنى الشـــديد الثائر ، وطبعنا الهوائى المتحمس رغبة فى أول نجاح ، السريع الانحطاط معنوياً لدى أول هزيمـة ، يحتم علينا أن نـكرس كل قوانا لننال فوزاً بادئاً » ! .

وشاع اللغط بين العـامة والخاصة ، بين المـدنيين والحربيين ، عن كفاية ـ جاملان ـ أو عجزه . . وراح المدنيون ينقمون على ما فيه الحربيون من راحة وعيش رغيـد ، وراح الحربيون ينقمون على المدنيين ما هم فيه من عبث واستهتار .

● وفى الساعة الرابعة ، ذات صباح ، أطلقت صفارات الانذار فى مدينة النور التى كانت لا تزال هاجعة . .

لقد جاءت الحرب إلى باريس ! . واحتجب الجو بأسراب الطائرات المغيرة . . ودوت المدافع المضادة للطائرات تلهب الجو بنيرانها المستمرة استمراراً لم يكن معهوداً من قبل . . وطلع الفجر على أضواء الموت تمزق حجب الفضاء وتخترق كبد السماء . .

ثم انتهت الغارة .. فعدنا إلى فراشنا . . ولم نستيقظ بعد ذلك بقليل حتى رأينا ألمانيا قد اخترقت حياد هولندا وبلجيكا ، واجتاحت جحافلها أرض الدولتين معاً .

وانقضت الأيام القليلة التالية فى حركة وهياج . لقد خطا هتلر خطوته ، وما زالت الدهشة عندنا تعم الجميع ، هـذا هو الامتحان الأكبر ، وكان تشرشل مشغولا فى انجلترا بتأليف وزارته . وألغيت أجازات الجنود والضباط الفرنسيين وأعيدوا إلى خطوطهم . والغارة تتبع الغارة . وقلما سكتت المدافع المسلطة على الجو فترة . . وما زال الألمان يتقدمون . .

● وسرعان ما غصّت شوارع باريس باللاجئين على عربات مثقلة بمتاعهم وما ملكت أيمانهم. ولم تمض أيام حتى أصبحت جموعهم تعد بعشرات، بمئات الألوف.. على مركبات، على عربات، على سيارات، على قطرات، على سفن وزوارق ولنشات.. حاملين معهم مجموعات عجيبة من قصص وأساطير للرعب والذعر.. كانوا مثل طاعون اجتاح الأرض لحرق الحرث والنسل وأتى على الرطب واليابس.. وكانت دموعهم مدراراً.. وقطع أكثرهم الطريق من بروكسل إلى باريس، فى سبعة أيام وهو الذى يقطعه القطار فى ثلاث ساعات!..

كانت مركباتهم مغطاة بمراتب الفرش وقاية لرءوسهم، بينما يرى رصاص المدافع الرشاشة من الطائرات قد ثقبها من كل جانب.

وكان اللاجئون إلى باريس يسيرون كتيار نهر لا ينقطع مجراه.. فبذلت السلطات ما لا سبيل إلى مكافأته بالحمد.. فقد أطعمت الألوف من جوع وكستهم من عرى وآمنتهم من خوف، وأنزلتهم منزل

الأهلين ، حتى يجىء الغد فيسيروا إلى الجنوب ليفسحوا المكان لسواهم من الزاحفين .. وفى كل مكان مراكز استقبال واطعام واسعاف .. وألغيت خطوط الأوتوبوس لتساعد على ترحيلهم وتوزيعهم فى الضواحى والقرى . وأغلقت الملاهى وخفضت الصحف إلى ورقة واحدة ، ومنع سماع الموسيقى من محطات الأذاعة ، ولم تعد هناك غير نشرة الأخبار تذاع كل ساعة . وكانت الكلمة المشهورة : « سنظفر بهم ! » ما زالت على الأفواه . . وإن كان أحد لا يدرى أين ومتى . كان كأن شيئاً قد كسر ، وإن لم يكن اليأس قد عم بعد . .

● وزادت الاشاعات بدرجة سخيفة فقيل إن رجال البارشوت من الألمان قد نزلوا فى كل مكان ، ونزل أحدهم فى ساحة المادلين ! . . . ولم يلبث أن عاد فصار بالوناً من بالونات الوقاية ! . . وقيل إن الألمان قد أخذوا لاون وريمس ، وأن الحكومة قد غادرت باريس . .

وفتح أمامنا مجال التطوع . فالتحقنا بفرقة لإسعاف الجنود واللاجئين فى سيارات اسعاف نقودها بأنفسنا

وتتحمل مسئوليتها فى ركب من عشرين سيارة وعشرين سائقاً، له قائده . ومساعده ، وسيارة مطبخه ، وطهاته ، وحاملة أمتعته ولوازمه ، تحرك من ميدان المدرسة الحربية فى صباح ٣ يونيه ١٩٤٠ .. وكنا الانجليزيين الوحيدين فى تلك الجماعة المكونة من أحد عشر فرنسياً، وخمسة هولانديين ، وخمسة بلجيكيين ، وكوبى واحد ، وواحد من غواتيمالا . ثم ألحق بنا ستة نرويجيين .

ونظرت إلينا الجماهير صامتة ، ونحن نمرُّ ، ولم تلوّح لنا النساء أو تبتسمن كالعادة ، ولكن ذلك لم يكن لقلة العطف وإنما لإدراكهن مهمتنا . فقد فكرن فى رجالهن ، وهن يعرفن معنى الصليب الأحمر . .

ومن لم يحكم عليه بالسير فى ركب طويل كهذا لا يعرف متاعبه . فما كان منذ اللحظة الأولى أكثر من الأوامر الا اضدادها !

● كنا نسير سير السلحفاة . لم يزد ما قطعناه من السادسة صباحاً حتى الظهر عن أربعين كيلو متراً . ولم نكد نهمّ بتناول وجبة الغداء إلى جنب من الطريق

حتى دهمتنا غارة فدوت المدافع المختبئة فى الغابات حولنا فزلزلت الأرض تحتنا. وصاح النذير يدعو إلى الخوذات وقناعات الغاز . . ولم يكن لدينا خوذة ولا قناع !

وسرنا فى تلك الطرق التى جعلها اللاجئون أضيق من الأزقة لا نكاد نتحرك إلا بشق الأنفس . ومن فوقنا الطائرات لا تنقطع . . وصياح الجرحى يهد من أعصابنا ، هذا يطلب دواء ، وذاك يطلب ماء !

ولم تكن علامة « الصليب الأحمر » على سياراتنا لتحمينا أو تقينا ، فإن الألمان لم يتحرجوا عن تدمير كنائس كان يخفق عليها علم النجدة والغوث الإنسانى .

وأهاب بنا النذير بعد منام نصف ساعة لم يزد ، أن احملوا متاعكم وخفوا إلى الرحيل حالا ، ان الألمان فى أعقابكم !.. فكان علينا أن نعمل المستحيل لإخلاء المستشفى المتنقل من جرحاه ومرضاه ولاجئيه وعامليه قبل أن يدهمهم جميعاً غزو الطغاة . . .

ولم تبد لنا مؤخرة الجيش الفرنسى المتقهقر بعد . فقد كان لا يزال يقاوم ببسالة مع ، حلفائه ، سيلا

عرمرماً من المدرعات الحاصدة ، وأسراباً هائلة من الطائرات القاذفة . .

● وبينا نحن فى هذه المحنة إذا برجل يستوقف الركب وينبئنا بأن « إيطاليا قد أعلنت الحرب علينا ! . »

— كيف عرفت ذلك ؟

— منذ متى ؟

— وما السبب ؟ وبأية حجة ؟

— يا للخنازير ! . .

كان ذلك النبأ الذى حملته الموجات اللاسلكية ، فى تلك اللحظة الدقيقة ، كالصفعة العنيفة... وحاولت الصحف التخفيف من وقعها بقولها إنها تعتقد أن الهجوم سيكون على يوغسلافيا !

وقلما يستطيع امرؤ أن يصور شعور الاستنكار والاحتقار لعمل تلك الدولة التى طعنت من الخلف شقيقتها اللاتينية الكبرى فى أشد ساعات محنتها . ومرّ يومان كنا كأننا فيهما فى عزلة عن العالم . تحيط بنا الهموم والفوضى ، وتغزونا أفواج اللاجئين والجوعى .

وكنا نتساءل يائسين : إذا كانت هنـــاك معركة فأين الجرحى ، وإذا لم تكن هناك معركة فماذا أصاب الجيش ؟

ولم نكن نمر بدرب أو سهـل حتى نلتقى قرويين راحلين مهاجرين . ولم يكن لدينـا متسع من الوقت لنسألهم إلى أين هم ذاهبون . . فلعلها الغريزة التى تدفعهم أمامها خشية الوقوع فى يد الألمـان . .

لقد كان الجميع فى عجلة للرحيل كما لو كانوا قد أصيبوا جميعاً بحمى الذعر . . كانت كل لحظـة تأخير عندهم تقربهم من الموت أو الأسر ، لقد عم الفزع كل شخص ، كل جماعة ، كل قرية ، كل مدينة ، كل شيء . . لقد عم الرعب الإنسان والحيوان .

● وكان رينو قد وجه نداء الفزع الأخير إلى العـالم الجديد المتحضر ، إلى أمريكا . . منـوهاً بالدين الذى لفرنسا على العالم ، مشيراً إلى أن حياة فرنسا فى خطر . وأن عوناً سريعاً حاسماً لا بد من أن يأتى على أجنحة الأثير كالبرق عبر المحيط ، وإلا فإن قوى الشر الغاشمة ستسود أوربا . . فلم يعد ينقذ فرنسا اليوم إلا معجزة .

● أسفاً على أن عهد المعجزات قد ولى وانقضى ! . .

● واستعفى رينو ، لم يستمع إلى نداء المقاومة والتعاون إلى النهاية الذى وجهه إليه تشرشل . وأسلم مقاليد الحكم إلى المسيو لبران والمارشال بيتان . . وسمعنا نداء الشيخ الهرم الذى أذاعه قائلا : إن قلبه يتمزق مما يعلمه من حال اللاجئين . . وأن قلبه يكاد يقف إذ يقول بضرورة وقف القتال . . فإنه قد بسط يده إلى أعدائه الأزليين سائلا إياهم الكف عن القتال !

وكانت حيرتنا لا توصف لدى سماع هذا التسليم ، فهل معناه أن الهدنة وقعت ؟ وهل ينوى الانجليز الصلح أيضاً ؟

● وما أكثر من لقينا يومئذ من أبطال ! . . رأينا رجلا أقبل علينا وسألنا هل نحن من انجلترا فأجبناه أن نعم . . فمدّ إلينا يده فصافحناه ، فقال : « إننى تشيكوسلوفاكى ، وقد عشت فى لندن عشرين سنة ، ولا تزال أسرتى هناك . . ولست أدرى ماذا أفعل الآن . . لقد ضعت . أريد أن أعود إلى انجلترا . .

فهل من سبيل ؟ أريد أن أجد أهلي وألتحق بالجيش . . »

فأبدينا أسفنا لعجزنا عن مساعدته ونحن أنفسنا في مثل حيرته . ولما سألناه عما أصاب الفرق التشيكية في فرنسا أشار إلى البندقية التي يحملها يائساً فإذا بها مرقومة بسنة ١٩١٥ - « كيف يمكن لجنود أن يحاربوا ضد طائرات ودبابات حديثة لا تحصى ببنادق عمرها خمس وعشرون سنة ؟ ! »

وكنا في تقهقرنا نبذل أقصى ما في وسعنا من مساعدة . . وكانت عيون الجنود حولنا ملتهبة مما ثار من دخان القنابل والقذائف الفاتكة المتساقطة ، وغبار اللاجئين من ورائهم كسحاب من التراب فوق السحاب . .

● وطفقت صحف فرنسا تأتي بأخبار مقتضبة عن الهدنة . وجر هتلر مندوبي فرنسا في عربة القطار التي حملت المارشال فوش عام ١٩١٨ بعد أن جرها من الأنفاليد ليعيد التمثيل . . ثم كان نداء بيتان للشعب بالاستسلام .

أما ما بقي فهو معروف ، وإن كان ليس معروفاً أن شعور أكثر من لقينا من الفرنسيين هو شعور

الخجل منا ، والاعتذار لنا ، وتمنى النصر ، ولو من بعيد . . .

● قالت لنا زميلاتنا الممرضات الفرنسيات وهن يدفعننا إلى النجاة بجلدنا : « بالله لا تظنوا أنكم تخطئون بالرحيل . إننا نعرف حرصكم على الواجب وتمسككم به ولكن ماذا يجدى ذلك فى حالتنا لا أمل فيها وقد عمتها الفوضى . ان الفرار كلمة قبيحة ولكن الظروف تغير كل شىء . إننا معكم بعواطفنا مهما حدث . . »

فاستخرنا الله ، وخرجنا فى سيارتين مع ثلاثة زملاء من الهولنديين . . . وكانت تلك هى المرحلة الأخيرة ، مرحلة الطريق إلى بوردو . . وكان الجوع حولنا صارخاً فلا أثر للخبز . . كنت تجد فى بلد واحد مائة ألف لاجىء بلا فراش ، ولا طعام ، قد استلقوا على قارعة الطريق فلا مرور ولا عبور .

ومع ذلك لم نعدم بيتاً يقدم لنا من حديقته « الخس » وبعض النبيذ . . وكلمات التشجيع والتمنى .

● وكانت الهدنة قد وقعت . . وأصبح مركز الانجليز حرجاً جداً . وأغلق طريق بوردو . . فاستعنا بتصريح

مزوّر مررنا به . فلمـــا دخلنا بوردو كان القنصل الانجليزى قد غادرها وما زالت مكتظة بالانجـــليز والهولنديين والتشيك والبولونيين والبلجيكيين ، كالفئران فى مصيـدة . . وكانت الحكومة الفرنسية نفسها قد غادرت بوردو إلى فيشى . .

وجن جنوننا من الفرح إذ رأينا نسافة يخفق عليها العلم البريطانى . . ولم يعد فى جيـــوبنا غير جنيهين وعشرة فرنكات ! فاتجهنا إليها والتمسنا لنا ولزملائنـا الهولنديين ملجأ . فقبلنا ، ورُفضوا ، لأنهم لم يكن لهم مكان . ولم تعد انجلترا ، فى تلك النسافة ، لتستطيع بعد توقيع الهـدنة أن تتصرف فى غير رعاياها . فكان فراق أولئك الأبطال ، الذين لقوا معنا الموت والجوع بشهامة ، مراً لا يطاق .

وأقلعت النسـافة ، وكانت آخر جزء من انجلترا غادر فرنسا . . حليفة الأمس . واتجهت صوبنا الأبصار تعجب بانجليزيين فى ثوب عسكرى فرنسى . . وانقلب الإعجاب إلى شبهة وسؤال واستجواب ! . .

وحجزنا فى بليموث ، ومنعنا من السفر إلى لندن . .
كان لا بد من « التضمين » علينا للتأكد من أننا لسنا
جاسوسين ، وهكذا استمر عناؤنا فى أرض وطننا .
حتى جاء أصدقاء معروفون فشهدوا لنا ، وأطلقوا سراحنا . .

وليس فيما رويناه اتهاماً ولا دفاعاً . . فقد عشنا ،
ورأينا ، وسمعنا . . . وعندنا أنه لم يحن الوقت بعد
لإلصاق التهم ، ولا لنفيها ، فلنترك هذا الحكم للأيام .

١٢ الصحفى الكبير الكسندر ويرث :
تحدث عن أيام باريس الأخيرة . .

● . . . إن ما أريد أن أدوّنه هو وصف آخر يوم لى فى باريس ، والانصراف عنها إلى أجل . . ماذا يعنينى الآن من الغد ، ومشاكلى التى تواجهه بالحرمان من باريس ! انهـــا بمكان من الضآلة والصغر والهوان إذا قورنت بفاجعة أوربا العامة . . ومع ذلك فانى لم أغادر باريس دون حزن مرير . . لقد تركت فيها جماعة من الطاعنين فى السن الذين لم تعد لهم فى الحياة حيلة ، وجماعة أخرى من الأصدقاء الفرنسيين ، وكثيرين فى الجيش ، ممن لن أراهم بعد مرة ثانية . . . إننى لا أكترث كثيراً بمتاع الدنيا ، ولـكن فـكرى يـكتئب عند ما يتجه إلى كتبى التى حرمت منهـا . فهى جزء من ذلك العمل الصحفى الذى طال فى مدينة النور ثلاثة عشر عاماً والذى قد يكون الآن قد بلغ غايته ووصل إلى نهايته . .

وعند ما أفكر فى باريس ، فى كل تلك السنين فى باريس ، وفى كل ماتمثله باريس للحضارة الأوربية ، أشعر بانقباض القلب كأنه يوشك أن يحتضر . . . إنى أعرف ان باريس مازالت موجودة ، غير أنه يصعب علىّ أن أتخيل انها مازالت كائنة هناك . .

● أيام باريس الأخيرة ! . . اننا كنا ننتظرها منذ أيام . فاحتمال سقوط باريس كان مقدراً فى وقت جد قصير . ففى يوم السبت عمّت وزارة الحربية الفرنسية موجة من التفاؤل . وفى يوم الأحد تغــير كل شىء ، لأن الألمـان عبروا نهر الاين ، واندفعوا جنوب سواسون ، وتقدمت الطوابير المصفحة نحو روان . وأصبح المركز حرجاً للغـاية .

وكانت الشمس ، فى عصر ذلك الأحد ، تلقى أشعتها الذهبية على الجالسين إلى المقاهى ، فى هدوء ، كأن شيئاً لن يحدث ! . .

لقد ضاق صـدرى ، وحرمت طعم الرقاد ، أقوم وأقعد ، وأقف بالنـافذة أتلق الهواء المنعش من نهر

السين ، وفوق قصر اللوفر سحابة ساطعة .. وقبة المجمع العلمى قد بدأت تكسوها طبقات من الظلمات .

أعطيت ربة البيت المفروش وزوجها خمسة آلاف فرنك . وهو مبلغ ضخم يساعدها دهراً . فسألتنى إذا كنت استطيع أن أمنحها ألفاً أخرى .. فقلت : كلا وقدمت إلى القهوة وشراب الكرز . . فبقيت أتحدث ساعة عن مشاغلى ومتاعبى . . وأنا عارف اننى لا أكاد أغادر باريس حتى تزداد متاعب البوابة وزوجها لانتى الساكن الأخير .

وكانت حقائبى معدّة . . فنظرت مرة أخرى من النافذة إلى رصيف النهر والسيارات فى رتل لانهاية له تجرى بجنون ، وليس بينها « تاكسى » واحد خال .. وجميع السيــــارات « والتاكسيات » محملة بالأثاث والفراش ! .. فنزلت ووقفت على الرصيف وقتاً طويلا ألوّح بيدى عبثاً لهذا الموكب ، فلم تقف منه سيارة .. وذهبت الخادم إلى محطة دورساى لعلها تجد واحدة ، بلا طائل . . إلى أن أراد الله بى رحمة فساق إلىّ

« تاكسى » عند كوبرى اللوفر . . فعاد بى إلى البيت . . فإذا بصاحبتـــه تبكى أحر بكاء وأنا أودعها . . وكانت بنتها ، وهى تحمل طفلها الصغـــير ذا العينين الزرقاوين ، تبكى أيضاً وطفلها . . . لا من أجلى ، ولكن للظروف التى أدت إلى مغادرتى باريس . . . وهى باقية بلا أنباء من زوجها المجند فى ميدان القتال.. ما أكثر ما حملت نساء فرنسا المسكينات ، الكريمات ، النبيلات ، من شقاء وحزن ! . .

● آه ! من ذلك الرحيل من باريس ! .. إن السيارة تضطرب فى كتلة من الجنود . . فى ثيـــاب رثة ، متعبين ، مرهقين ، قد انحطت فيهم الروح المعنوية ، وأكثرهم سكارى ، وكلهم بلا بنادق ، زاحفين على باريس ! . .

فلول جيش مهزوم . . .

وكان أغلب السكارى من الجند يصيحون : « فلتسقط الحرب ! . . » وسرنا فى شـــوارع كدت أجهلها ، وخلال غاب بولونيا ، المهجورة ، فى تلك الساعة ،

إلى «أوتاى» . . حيث كانت تنتظرنا سيارة أصدقاء ، وقفت بنا أمام محطة بنزين اصطف إزاءها طابور طويل من السيارات ، إذ كانت أكثر المحطات قد أغلقت ، وأبى العامل أن يخدمنا لأن ذراعه كلّت من التعب . . فقمنا عنه بإدارة الطلمبة ! . .

وعلمنا أن المارشال بيتان قد أذاع أنه سينظر فى طلب الهدنة !. يا للخبر السوء ! . . وإن كان متوقعاً . . . ولكن تأثيره شنيع على الجنود الذين ما زالوا فى عدة جهات يناضلون . . . فما من أحد يحب أن يقتل فى آخر يوم من أيام الحرب ! . فهذه الأذاعة تقضى على كل مقاومة باقية . . الناس من حولنا يموجون فى بحر من الدموع . . كيف نغادر فرنســـا ، لِمَ نغادرها هكذا ؟! . .

● لقد كانت تدوى فى أذنى الكلمات الأخيرة للجلسة الأخيرة بمجلس النواب . . عندما لقيت فى أحد دهاليزه الصحفى المعروف مارسيل ديا (وهو الذى أطلق عليه شاب فرنسى الرصاص مع المسيو لافال عند استعراض

الجنود الفرنسية المتطوعة لمحاربة روسيا السوفيتية)
وكان بصحبة صحفيين فرنسيين آخرين، إذ قال لهم بملء فمه:
« الأفضل عقد الصلح على نهر السوم من عقده على
نهر السين، وعقده على نهر السين أفضل من عقده على
نهر اللوار، وعقده على نهر اللوار أفضل منه على
نهر الجارون!...». ولم يتردد فى أن ينتقد أمامى
نقص المعونة البريطانية، مقترحاً بعد تصفية دنكرك،
أن تترك فرنسا لتواجه المانيا وحدها: « اننا دُفعنا
الى هذه الحرب دفعا.. ونحن نعلم حق العلم اننا
لايمكننا مساعدة البولونيين.. وقومكم فى لندن لاريب
كانوا يعلمون ذلك أيضاً.. كان لا بد من التفكير
قليلا قبل الأقدام، وعند ما كتبت فى العام الماضى مقالى
« هل نموت من أجل دانتزج؟ » صحتم جميعاً بأننى خائن
ومن دعاة التردد والهزيمة، وانضم ذلك المسكين دلادييه
الى الفرقة العازفة! فذوقوا الآن ما كنتم تنكرون! »
● وهذا ما لم أجد فائدة من إرساله الى جريدتى لأن
الرقيب الفرنسى ماكان ليجيزه أبداً.

وكان « ديا » يمثل ألوف الألوف من قومه .. حتى ان صحفياً فى جريدة البوبولير قال : « رباه . هل انقلب الناس جميعاً نازيين .... »

وهذه هى برقيتى الأخيرة ، عن يومى الأخير :

● ان باريس تبدو فى كربها ومحنتها أشد ماتكون جمالا ولا شىء يشعر بانقلاب حياتها إلا سيل السيارات التى تغادر مدينة النور محملة بالمتاع ، والدموع تجرى من عيون ركابها .. وفى الليل يسمع دوى الطلقات خارج دور الحكومة وفى محطات المترو تحت الأرض .. ولا تزال المقاهى والمطاعم تقدم الطعام بكثرة حتى منتصف الساعة الحادية عشرة مساء .. وأن المرء ليعجب ، والحرب على أبواب باريس ، كيف تصل كل هذه القطرات محملة بالزاد الى بطنها الذى لايشبع ..

الناس يتوقعون مطراً من القنابل فى كل لحظة .. وقد انتشرت فى باريس سحب كثيفة من الدخان جرفتها الرياح ، من تلك السحب الصناعية التى يطلقها الألمان لحجب حركاتهم عن جيوش الحلفاء ، فتتقدم السحب

السوداء ، ويتقدمون خلفها كالستائر المحرقة . . . الغصّة في كل حلق ، وطعم الاحتضار والموت على كل لسان . يشم المرء في الجو رائحة أشجار الصنوبر المحترقة . .

لقد حلقت في سماء باريس طائرة المانية فتركت دائرة كبيرة من الدخان ، في حين حلقت طائرة ألمانية غيرها من فوقها بينما كانت هذه تتبع علامتها السرية الخفية .

هذا ما كان يردده كل شخص ، ويفسر العلامة . . . وكان كل واحد أيضاً ، يظهر من العلم أكثر من سواه ، فيروى حكاية شائقة عن أن ملك انجلترا عند ما زار جبهة القتال كان الألمان يعرفون حركاته وسكناته ويعلنونها بالراديو ، وينوهون بالأماكن التي سيزورها سلفا !

● ومن البديهي أن الدعاية الألمانية قد نالت أعظم الفائدة من الملاحظة الآتية وهي : « انه ما من امرىء يستطيع مقاومة شهوة أن يكون أول من يذيع حكاية شائقة » . . فلا بد إذن من اختراع مئات الحكايات ، فان الأشاعات تنقلب وقائع ! . . ففي البلاد التي يحب أهلها كثرة الكلام ، كفرنسا ، يتولى مئات من المحدثين

عن طيبة خاطر ، وبكل سذاجة ، تنفيذ الدعاية الالمانية فيكررون فى المكتب ، وفى المقهى ، وفى الخارج ، وفى الطريق ، وفى الغداء والعشاء ، كل حكاية أو رواية يمكن أن تلفت النظر ..

● فاذا درسنا القوانين البسيكولوجية التى تحملنا على الاهتمام بهذا الأمر أو ذاك ، نصل حتما الى وجود معين لاينضب من الدعاية ، وهذا مافعله الألمان .. فقد خطوا هذا الأمر كما لو كان علماً جديداً ، بل ان عندهم له معاهد يعلمون فيها الدعاية والاذاعة والاشاعة، أسلحة الطابور الخامس ، كما يعلمون الكيمياء والميكانيكا ..

● وقد أضاف وكلاء النازى اختراعا جديداً الى قائمة مبتكراتهم الطويلة ، ألا وهو : « الزيارة المنزلية » ! .. فان زوجة الرجل المجند أو الضابط فى الميدان تتلقى زيارة من « صديق » لزوجها أو « رفيق كان معه بالمدرسة » فتستقبله بالطبع على الرحب والسعة .. فيوجه إليها بضع عبارات العطف والتشجيع ، مع أرق عواطف زوجها الغائب فى جبهة القتال .. ولكن هذا « الرفيق » أو

« الصديق » المزعوم يسجل فى ذاكرته كل تفاصيل المسكن الذى يزوره أو الشقة التى يدخلها .. فيعرف لون الفراش والاباچور ، والصور المعلقة على الجدران وشكل الراديو الخ ... ثم لايلبث أن يرسل خطابا إلى الزوج يروى له كيف تخونه زوجته وتهتك عرضه « بسبب هذه الحرب الملعونة » ... ويفصل له مارآه فى البيت . مع تقرير عن وقائع غرامية ما أنزل الله بها من سلطان ! .

فتصور الحالة النفسية الأليمة التى يصبح عليها المقاتل ! انه كان غالباً يلح فى طلب اجازة ٢٤ ساعة ليعود فيقتل فيها زوجته ! ..

وكان آخر منشور ألقاه الألمان على باريس بعنوان : « أيها الفرنسيون ! . أعدوا نعوشكم ! ... » .. ثم من خلفه إحصائيات ، على ورق مصقول ، تثبت للجماهير القضاء المحتوم بانتصار هتلر .

لقد سمعت بنفسى صديقتى ارين ترتيا كوف - وقد جاءت للعشاء عندى - تروى ، وهى مفتوحة العينين من الدهشة ، انهـــا رأت بهاتين العينين رجلين من رجال

البارشوت الالمـان ينزلان فى الشانزليزيه !.

فلما وصلنا فى العشاء إلى الحلوى ، سمـعنا الراديو يكذب الخبر ، ويقول ان الأمر يتعلق بأحد البالونات الخاصة بالمراقبة ، قد قطع ... فقالت ارين : كيف يمكن أن يخلط المرء بين رجلين ، بيدين وقدمين ، وبين بالون يحلق كالسجق ! ؟ . .

لقد كان رجال البارشوت الألمـان يتنـكرون فى أزياء نساء ، ورهبـان ، وفلاحين ، ويتساقطون كالمطر ، أو كالضفادع .. رأيناهم فى بلجيكا وهولندا ، ثم هاهم أولاء فى باريس ، فى أزياء ضباط فرنسيين ، على ياقات سترهم رقم (٢٧٠) ليعرف بعضهم البعض فيما بينهم ..

● عند مالم يبق على تسليم باريس إلا أسبوعان أو ثلاثة حدث أن ضابطا كان يحمل محفظة كبيرة فيهـا خطط الدفاع عن العاصمة ضـد الغارات الجوية ، قد جلس للغداء مع بعض أصدقائه ، وإزاءه امرأة جميلة ، مدعوة معه . . . وكان أقل ما يفعـله رجل فرنسى ، وهم مشهورون بتفانيهم فى النساء ، أن ينسى كل ما سوى

الحسناء المواجهة له ، ولكنه لن يذهب بالطبع إلى حد نسيان الوثائق التى وضعها إلى جانبه ؟ !

أما الطابور الخامس فقد كان ساهراً . . . فلما انتهى الغداء ، نهض الرجل الرقيق ليأخذ محفظته ، فإذا بالحقيقة المروعة تواجهه أيضاً باختفاء المحفظة !..

● كانت الساعة السادسة صباحاً عند ما ذهبت لأتناول آخر كأس من القهوة باللبن . . فأزعجتنى رءوس موضوعات الجرائد بضخامة حروفها ، وأزعجتنى رءوس الجنود الكثيبة الخاسرة . . .

● إن المستحيل قد وقع أو كاد . . فالفوضى والفزع فى كل عقل ، وفى كل قلب ، وفى كل مكان . . والعدو يزحف بجحافله الفولاذية . . ومع ذلك فليس لحم الإنسان بالذى قدّ من حديد وصلب . . انه يذوب ، ويتمزق ، ويتناثر أمام الحديد والنار . . إن فرنسا ، فرنسا الفخور العزيزة ، أمنا المحبوبة ، قد ذلت ، وهانت ، وجثت على ركبتيها تسأل الرحمة ! . .

● أجل . . إن السياسة قد أفسدت الحكام ، والمدرسة

بغير دين قد أفسدت الجماهير ، والبؤس والحرمان قد أفسدا الفلاح ، والمرتب الضئيل قد أفسد الموظف الصغير !..

ها هى ذى الدبابة ، سر نكبة فرنسا .. قد هربت من أمامها الألوف المؤلفة من اللاجئين من نصف بلاد أوربا . . فسدت الطرق كلها ، ووقفت الجيـــوش مكتوفة اليدين إزاء هذه الأبدان المعذبة المكدسة ! . . واختلط الحابل بالنابل ، وانفصلت الجنود عن فرقها ، وحرمت من كل نظام ، أو طعام . . . وكنت تجد ، ويا للعار ! ، أصحاب الفنادق الصغيرة والمطاعم الإقليمية يأبون إطعام الجنود لأنهم لم يكن معهم ثمن الطعام ! . .

إن القوى البشرية لها حدود لا تستطيع تجاوزها . . فقد انحنت ، على رغمها ، للدبابات التى بعدد الرمل فى الصحراء ، والطائرات التى بعدد الطير فى السماء ! . . . هذا فى حين أن حكام البلاد كانوا قد استولوا على خمســة مليارات من أجل الذخائر . . هؤلاء الرجال الأبقـار ! . . لقـد باعونا ، نحن مواطنيهم ، وبذروا الأموال على خليلاتهم الفاجرات ! . .

● اليوم ١٦ يونية ١٩٤٠ ، يستعرض الألمان جنودهم فى موكب بالشانزليزيه . . بعد ما دخلوا باريس منذ يومين . .

وفى ذلك اليــــوم المنحوس ، للحداد الوطنى ، رغم المحنــة العامة الشاملة ، بكى الناس الجراح العظيم « تييري دى مارتل » بن الكاتبة الشهيرة « جيب » الذى طالما خفف ألوان الألم والعذاب عن ألوف المرضى ، لأنه عند ما رأى من شرفته الألمـان يدخلون فى موكب الظفر إلى قلب باريس ، انتحر بأن حقن نفسه بالاستريكنين . . . إذ عز عليه اجتياح عاصمة بلاده على هذه الصورة المنكرة ، بل العاصمة الثـانية لكل مفكر ، أو عالم ، أو فنان ، أو أديب . . .

وقد انتحر مع هذا الجراح الشهير ٨٠٠ شخص فى ذلك الصباح . . دون أن يدرى أحد منهم بصاحبه . . لأن قلوبهم كانت قد غصت بالنكبة ، واختنقت ، ولم تعد عيونهم ترى فى مدينة النور خلاصاً إلا بظلمات المنون . . .

١٣

« جون بستر » يصف معجزة الجلاء عن دنكرك . .
وحرب الفناء فى بحر الشمال . . والمباراة فى التضحية . .
والسباق بين الرجولة والبطولة . . .

● ربما كانت دنكرك هى أعظم موقعة فى التاريخ من أقدم العصور إلى اليوم . أما ما أدى إلى انتصار الحلفاء فى انسحابهم الرائع الذى أنقذ أكثر من ٣٥٥٫٠٠٠ جندى فهو الخُلق الانجليزى ، لذلك حرصنا على أن نلخص الكتاب الأول عن معجزة الجلاء مثالا يضرب لشباب كل البلدان فى كل الأزمان .

ان الكاتب الانجليزى الكبير ه . ج . ويلز عند ما وصف حروب الفناء فى المستقبل لم يتصور شيئاً شبيهاً بما جرى فى بحر الشمال فى الفــــترة بين ٢٩ مايو و ٣ يونية سنة ١٩٤٠ .

فمنذ اللحظة التى انكسرت فيها الاستحكامات الفرنسية فى سيدان وعلى نهر الموز فى نهاية الأسبوع الثانى من شهر

مايو ، لم يكن أمام الجيوش البريطانية والفرنسية التى دخلت بلجيكا ، استجابة لدعوة ملكها ، غير سبيل واحدة تمكنها من النجاة ، هى الانسحاب السريع نحو اميان وجنوبها

لكن الألمان اندفعوا كالسهام يضحون بألوف الرجال فلم تستطع القيادة الفرنسية العليا ســـد الثغرة المفتوحة . . وتولى فيجان مكان جاملان . غير أن الهجوم الألمانى اندفع بفرق ميكانيكية وسيارات مصفحة لاتحصى من كل نوع . فقطعوا مواصلات الحلفاء لاستمداد المئونة والذخيرة ، وكانت فى مبدأ الأمر تصل عن طريق اميان ثم ابيفيل ، ثم اندفعت القوة الهمجية صوب الشاطىء الى بولونى وكاليه والى دنكرك ...

ووصلت ضربة هذا المنجل المصفح الفولاذى إلى دنكرك تقريباً . أجل ، تقريباً لا .. تماما .. وراحت كاليـه وبولونى مسرحاً لقتال يائس رهيب ، ودافعت القوات حتى لم يعد بوسعها الدفاع . . وكان للبريطانيين ثلاثة آلاف جندى وللفرنسيين ألف جندى فقط فى تلك المعركة البشعة . . وظلت هذه القوة تذود عن كاليه إلى

النهاية . . حتى حملت سفن الأسطول البقية الباقية . .

● وأصبح الانسحاب محدوداً بخط واحد إلى ميناء واحد ، هو دنكرك .

● لقد كان هناك صلب الجيش البريطانى ولبُّه وقلبه . . كان الجيش الذى بناه رجال أحرار . . كانت هذه الخلاصة ، موشكة على الفناء أو الوقوع فى الأسر . .

● وكان الجيش البلجيكى الباســـل المؤلف من نحو نصف مليون جندى يحرس جناح الحلفاء الشرقى وبذلك أبقى خط الرجعة الوحيد إلى البحر مفتوحاً . . وإذا بالملك فجأة بلا مشاورة ، ولا انذار ، ولا مجرد اعلان ، ولا حتى همسة فى الأذن ، ودون أن يستشير وزراءه ، أو يعمل بنصيحة أحد منهم ، يسلم جيشه إلى ألمانيا ويعرِّض جناح الحلفاء كله للخطر ويكشف وسائل أمانهم وسلامتهم !

واستمر الصراع الهائل أربعة أيام أو خمسة . . وجعلت فرق السيارات المصفحة كلها ترتمى كتلا ضخمة بمدافعها وقنابلها ، وتتهالك على الممر الضيق المنكمش كسن الحربة الذى تناضل عنده القوات البريطانية والفرنسية ،

ولكن تهالكها وقف عاجزاً لايجديهـــا فتيلا .

● وتقدم الأسطول البريطانى الى النجدة ، بل تقدم كل فرد فى المملكة البريطانية يملك يختاً أو زورقاً أو سفينة شراع أو سفينة بخار .. ووراء ذلك رجال السفن التجارية وفريق كبير من المتطوعين الأبطال .. فاحتشد فى البحر ٢٢٢ سفينة للحكومة و٦٦٥ سـفينة للأهالى والشركات ، وكان منها الكثير من سفن الصيد واليخوت الخاصة ، وسفن الجر وعوامات النقل ، وعلى طول بضعة عشر ميلا من ساحل دنكرك ظلت هـذه السفن على أرصفة الميناء الضيق تنتظر الجنود الفرنسية والانجليزية ، وغامرت بالاقتراب إلى أقصى مايمكن من مرمى نيران مدفعية الساحل ، وتحت وابل من قاذفات القنابل التى كانت تغطى الجو وتمطرها بالموت ..

● واذا بالمسرح قد تغير فجأة وسكن الرعد فترة .. وتحول قصفه المروع الى معجزة للخـلاص والنجاة ، أجل .. معجزة ، بفضل بسالة القلب وقوة الإيمان .. بفضل النظام والاقدام ، وسعة الحيلة ، وعدم التزعزع

لدى المصائب ، ومواجهة المحن بارادة وتصميم على النصر ..
فلقد تدخل أيضاً السلاح الجوى البريطانى فى المعركة
وحول الهزيمة المنكرة إلى نصر يحيِّر الألباب . .

كانت التجربة فذة فى ذاتهـا . . فان البحر المغطى
بألف سفينة من كل الأشكال والأحجام كان هدفاً
وأى هدف للطائرات الألمـانية . . بقذائفها ومدافع
ماكيناتها وركام الألغام المبثوثة ، والطوربيد المتساقط
كالقضاء المبرم ، والقنابل المحرقة التى جعلت دنـكرك شعلة
تتلظى كأنها قدت من قلب جهنم . . . على انه برغم
هذا كله . قد فازت البسالة والتضحية على القوة الغشوم

وهذا الـكتاب هو وصف بديع لفرقة مدفعيـة
أبحرت من انجلترا ومرت منـذ أول الحرب بضروب
منوعة من الفكاهات والمحن . . فنرى العاطفة المتقدة
بحب الحياة والهناء العائلى فى ظل السلم والصفاء تتحول
تلهفاً حاراً للموت فداء الأوطان . . .

● البيت القديم العزيز ينظر إلىّ ، بكل عيونه ، من
فوق المياه المتلألئة . إنه عش الهناء ، على تلك الأكمة

الزمردية ، يطل على الشاطىء الرملى البديع .. مودعاً .. ها هو ذا .. هناك ، يبعث دفئاً ، وينطف عطراً ، فى مغرب الشمس الهاربة ، ويفوح حباً فاضلا وسلاماً مقيماً ! ..

يا له من بيت هادىء ، عريق ، انجليزى صميم ... أعجب ما فى معجزاته عندى ، أنه لم يتغير .

لم يتغير . أجل . ولهذا السبب أدركت مدى ما أصابنى أنا من تغير تام ... لقد ظل البيت هو نفسه ، حتى آخر حجر فى جداره ، وآخر لوح فى سقفه ، كما عرفته ، مدى اثنى عشر عاماً ، على الأقل أما أنا .. فكيف صرت أنا ؟ ... على ظهر سفين محتشدة بالجنود ، يغلى مرجلها ، فى انتظار الليل يرخى سدوله حتى تحجبها الظلمات لتبحر إلى فرنسا ... وأنا ، على رأسى خوذة فولاذية حتى تنجو جمجمتى من شظايا القنابل ، وعلى وسطى ضُرب حزام من المطاط لأنجو به من الغرق إذا أصبنا بطوربيد ، وعلى وجهى قناع بشع ليقى صدرى من غاز الاختناق ، ويقى عينىّ من

العمى . . وعليّ معطف خاص ليقي جسدي من الخردل والتشوه البشع بالاحتراق . . . وفي جنبي مسدس لأستخدمه إذا أردت قتل إنسان ، وفي يدي سوار عليه اسمي في حالة ما إذا قتلت أنا . . .

لقد تدججت بسلاح الحرب !

وكان البيت العزيز العتيق هو السلام . . السلام الذي عرفته سنوات عديدة ، السلام الذي فاض بساعات طويلة من الهناء والمرح وضجة الشبان وضحكات الفتيات .

ومع أن نوافذه التي تعرفني كانت تحدق فيّ من خلال المياه الراقصة . فقد قلت لنفسي : « إنها لا يمكن أن تعرفني الآن ، وأنا شاكي السلاح هكذا ، فإنني لم أعد بعد من أهلها . . وهل تراني سأعود يوماً ما ؟ . . »

وأصابني شعور غريب بأنني أصبحت مخلوقاً لا عمر له . فلست شاباً ولست شيخاً . ومنذ خمسة أسابيع فقط كنت أعرف أنني بلغت السابعة والعشرين . . وكان يعرف ذلك أيضاً البيت العزيز القديم . . فقد احتفل

به معنا .. أما الآن فأنا بلا عمر ، وبلا بيت . .

وجاء أحدهم ووقف إلى جانبي مستنداً إلى حاجز السفين .. رجل تزوج منذ عامين ، وصار أباً .. وهو يعرف مثلي البيت العزيز العتيق الواقف على صخر الجزيرة . . لذلك لا عجب إذا وقفنا معاً فى صمت ، نرقب الجدران الرمادية الملساء تختفى رويداً رويداً حتى تصبح ظلا ، فى الضوء المتناقص المتضائل ، وتنتهى بأن تكون جزءاً من كتلة الظلام المتكاثف . . .

● لم يكن عمر الحرب إلا ثلاثة أسابيع . وكانت فرقة الميدان المؤلفة من ٢٥ بطارية ، لكل بطارية اثنا عشر مدفعاً ، هى من أوائل الفرق التى نزحت إلى فرنسا . وكانت مدافعنا وسياراتنا قد غادرت انجلترا قبلنا من ميناء آخر . . على أن نلتقى بها فى « مكان ما من فرنسا » .. هذا إذا لم نغرق أو تغرق فى الطريق ..

إن فرقة المدفعية التى تفترق عن مدافعها تكون كالأم الحنون التى تفترق عن أولادها . فهى لا تسعد إلا بردهم إليها ، وكذلك كان حالنا . فقد تفقدناها

على ظهر السفين . وشعرنا أن شيئاً قد ضاع منا ، ولا سبيل لنا إلى العيش من دونه . .

وفى كل مكان من السفينة كان الضباط والجنود يكتبون الرسائل . . لا يسمحون لأحد بأن يقطع عليهم تأملاتهم ونجواهم . . وكانت رسائلهم حتما هى عبارات الوداع الأخيرة ، تتمة العبارات التى تبادلوها شفهياً من قبل . . قبلما تغيب وراءهم انجلترا ، غياباً ربما كان الى الأبد . . . .

وكان لا بد من كتابة ألوف وألوف من الكلمات فى تلك الساعات القليلة قبلما يدخلون إلى المجهول . . كان لا بد من تصاعد ألوف التنهدات من قلوب مئات الرجال الشجعان . فلعل يد الرقيب فى ميناء « شربورغ » قد ترفقت بها . . . .

فقد كنا سننزل فى شربورغ . وإن كان ذلك ظل مجهولا من الجميع . وكاد ينتصف الليل . . ليل أسود بلا قمر ولا نجوم . . والسفينة فى ظلام دامس وسكون مطلق . . . وقد وقف صرير الأقلام

التى تحرر الرسائل ، مالت الجنوب إلى المنام .

نصف الليـل . . حان وقت فتح الحراس سلسلة البحر الوسطى لنبحر إلى عرضه . . وأضيئت الأنوار الحمراء والبيضاء معاً ، علامة منا على استعدادنا للتحرك . فجـاءت الأشارة خارج السلسلة من لمبـات (مورس) صادرة من مدمرة تقول : « تقدموا » . . فبدأنا نتقدم ببطء إلى الأمام . . .

ثم لم نلبث أن شعرنا بهزة شديدة إذ وقفت سفينتنا فجأة ، على ربع ميل واحد من السلسلة ، لصدور أمر مفاجيء لها من المدمرة بالوقوف . . فقد كانت السلسلة غير نظيفة ، لوجود حطام قارب من قوارب الطوربيد . . ولم يكن أمامنا إلا أن نلتى « الهلب » وننتظر . . ولـما انتصفت الساعة الثالثة صباحاً عادت أضواء « مورس » تسطع بقوة فتمزق حجب الظلام . فقد فتحت السلسـلة أخيراً . فسرنا بحذر من وسطها ، حتى خرجنا ، فأغلقت من خلفنا .

وكانت سفينتنا الرابعة من قافلة محروسة . فسرنا

تتبع شعاعاً ضئيلا أحمر فى السفينة الأولى لا يصلنا منه إلا نحو ما يصدر من عقب سـيجارة ! وعلى الجانبين مدمرتان حارستا سفن الجنود كأنهما كتلتان هائلتان قدتا من كبد الليل نفسه . . إن مصيرنا جميعاً معلق ، لساعات لا يعرف عددها ، بهاتين الكتلتين القائمتين . . . وكنا نسير فى خطوط متعرجة، ونسرع ، ثم نبطىء . . ونتمهل . . ثم نسرع . . وكانت المدمرتان تكادان تلتصقان أحياناً بسفينتنا ، وكانتا أحياناً تختفيـان عن أنظارنا . . غير تاركتين وراءهما إلا ذيلا شاحباً من الزبد . . كانتا وراءنا ، وكانتا أمامنا ، وكانتا وسطنا ، وكانتا فى كل مكان على ما خيل إلينا ، كأنما كانتا تقيسان البحر ذراعاً ذراعاً حولنا ! . .

فما كان أبدعه مشهداً داعياً إلى الطمأنينة فى هذا الليل البهيم من هذه الحرب الطاحنة !

كان ذلك فعلا رائعاً . كانت سرعة القافلة ٢٢ عقدة . مع كل ما يحيط بها من أخطار الغواصات وزوارق

الطوربيد . . وصرنا على ثلاثة أميـال من شربورغ فاتجهت عيوننا وأنوفنا نحو وجهتنا . . وكان الفجر قد بدأ يطلع بلون الورد على الشاطىء الفرنسى .. وجاءت طائرة مائية فرنسـية إلى لقائنا وظلت ترسم دوائر فى جونا حتى وصلنـا ميناء شربورغ ، حيث أسلمتنـا المدمرتان ، وعادتا أدراجهما إلى انجلترا . .

ونزلت تلك القطعة الصغـيرة من فؤاد انجلترا ، التى كانت نحن ، إلى أرض فرنسا . .

● أخشى أن أقول إننا شعرنا فى الطبيعة بتغير الجو . . فقد كنا بلا شك ننتظر ترحيباً حاراً . وقد توقعنا هتافات وابتسامات ، وربما أيضاً قبلات ! فقد كنا قرأنا أن شيئاً من ذلك قد حدث للجنود البريطانيين الأوائل الذين نزلوا أرض فرنسا عام ١٩١٤ ؟ . . . وها نحن أولاء لم نتأخر كثيراً عن أوائل سنة ١٩٣٩ ! .. كنا نتوقع أن نذهب من فورنا إلى الميدان . وكنا واثقين من أن فرنسـا ستهتز طرباً برؤية وجوهنا وملابسنا العسكرية الجديدة . لعلنا كنا حمق لتوقعنا هذا كله . وربما كان الزمان

قد تغيّر . وربما كانت هذه حرباً لا يميل فيها أحد للهتاف والترحيب ، أو ربما كنا سيء الطالع فحسب !..

بيد أن الحقيقة الواقعة هى أننا لما نزلنا شربورغ فى الساعة الثامنة ، من صباح مكفهر كئيب ، كانت الجماهير التى ازدحمت لرؤيتنا مكونة من بعض البحارة الفرنسيين ، وبعض النساء من عجائز سوق السمك ، وصياد أو صيادين ، وثلاثة خفراء ! . . فلا غرو إذا كانت لجنة الاستقبال هذه مخيبة للآمال ! . . وقد ألقوا علينا نظرة عابرة أو نظرتين بلا اكتراث . . ثم مضوا لطيتهم وانصرفوا إلى عملهم . .

وكان بعضنا فعلا يتوقع ألواناً من العناق والقبلات !..

● ولم يكن اهتمام السكان بنا ، داخل فرنسا ، بأعز من اهتمام أهل الميناء . فقد كانوا لا يكادون يتطلعون إلينا . . وتوسمنا فيما بعد أن السر فى ذلك هو بعدهم عن خط سيجفريد . وكانوا بعيدين ، بعيدين جداً عن الحرب الماضية . . فإننا كنا كلما اقتربنا من خطوط القتال لاحظنا أن الأهالى المدنيين لا يخفون أن وجود

الجيش البريطانى حيوى جداً بالنسبة لهم .. ولم نعد نشغل أنفسنا بمسألة الترحيب بنا أو الانفضاض من حولنا ، وإن كانت ، فى الأيام الأولى ، قد حزّت فى نفوسنا .

عند ما يعود السلام سأكون شديد الرحمة مع أولئك المندوبين المتجولين الذين يذهبون من بيت إلى بيت ، ليبيعوا مكنسة كهربائية لسنا بحاجة إليها ، أو اشتراكاً فى جريدة غير منتشرة ، أو بوليصة تأمين فى شركة غير معروفة .. سأكون رحيما بذلك المندوب ، لا لأنى سأذكر زوجته وأولاده المساكين .. بل لأنى سأذكر قدميه المسكينتين ! . .

فقد عرفت ما هو المشى ، وما هو التعب ، وما هى حجارة الطريق ، كما عرفت ذلك قدماى المعذبتان . . والله وحده يعلم كم من الأميال قطعت شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً حول البلدة ، ثم حولها ، ثم حولها كرة أخرى ! . . وفى يدى كشوف طويلة للشوارع والبيوت والشقق ، وإحصاءات لكل غرفة خالية ، أو شق خال . فقد كان علىّ أن أسكن سبعمائة رجل - هم رجال

بطاريتي - فى صعيد واحد !.. وكنت أسأل زميلى :
كيف حال قدميك فيقول لى : انه لم تعد له قدمان !..
ولم يكن لدينـــا وقت للراحة مطلقاً ، لأنه من غير
المعقول أن نترك رجالنا ينامون على قارعة الطريق !

● هـذه هى الحرب ! . . فليست الحرب هى مجرد
إطلاق القنابل وإلقاء القذائف . إن الحرب هى نظام دقيق
من الطعام والشراب والمنام ، والذخيرة المعنوية والمادية.

فانظر إلى هؤلاء الإنجليز يأتون إلى هـذه القرية
الفرنسيـة ، فلا يلبثون من اليوم الأول أن ينشئوا
منتدى لهم . وجدوا بيتاً ريفياً صغـــيراً مخرباً هجره
أصحابه منذ الحرب المـاضية ، ولا تزال على حيطانه آثار
الجنود الذين سبقوهم منذ عام ١٩١٨ !.. فرفعوا تراب
ربع قرن ، ونظفوا وأصلحوا ، وأثثوا بكل ما وجدوه
بيتاً انجليزيا هادئاً ، يقضون فيه وقت راحتهم ، ويعيشون
فيه ، ضباطا وجنـوداً ، أسرة واحدة . . . ولم يـكن
قائدهم يبلغ من العمر أكثر من خمسة وأربعـين عاما ،
وكانت كل صنعـة وحرفة ممثلة فى تلك الفرقة . فمن

عمال ميناء ، إلى تجار ، إلى محامين ، إلى بائعين ، إلى أساتذة جامعيين . . وهذه هى الديمقراطية ! .

ولم يكونوا فى انتظار اشتـــداد الحرب خاملين . حفروا المخابىء للوقاية من الغارات ، وأعدوا الخنادق ، وبنوا قواعد مدافعهم الضخمة ، والمقاومة للطائرات . . لا شىء يثبط همتهم ، لا البرد ، ولا القفر ، ولا المطر المتواصل الذى كان لا ينقطع ، ولا يترك لهم ثياباً ناشفة ولا فراشـا « جافا » . وكان الوحل فى كل خطوة يضرب إلى الساقين . .

● لم يكونوا قتلة جاءوا يسفكون الدماء . . بل إنهم رجال خيرون عاملون ، قضى عليهم الواجب بالبدار إلى المعركة . . أنظر إلى بعضهم ممن لم يجدوا مكانا ينامون فيه فقضى الترتيب أن يناموا فى « المذبح » أى فى « سلخانة » البلدة . . ومع أنها كانت مغلقة لا يجرى فيها ذبح ، فإن مجرد الفكر قد أزعجهم ، فالتمسوا من قائدهم أن يعفيهم ، وآثروا عليها النـــوم فى العراء . . أو تحت أرجل الخيول فى الاسطبلات ! . .

بل إن بعضهم لم يستطع أن يرى ذبح خنزيرين أعدتهما الفرقة لليلة عيد الميلاد ، لأن منظر الدم كان لديهم لا يطاق . . مع أن كثيرين منهم خاضوا غمار الحرب الماضية . . وكان زملاؤهم الآخرون يمزحون معهم ويسألونهم : أيريدون الحرب تقبل وتمضى دون سفك دماء بنى آدم ، ولا دماء خنازير ! ؟ !

● أسفاً على أن الدماء لن تلبث أن تسيل أنهاراً . . فقد كان العدو قد أقبل بمئات الألوف وكان معتزماً أن يَفنى ويُفنى . . فراح يحارب المدنيين قبل الجنود ، ويمطر المدن والقرى بقنابله الفاتكة ، فتخرج الناس من ديارهم هائمين على وجوههم ، فيسوقهم أمامه بالمدافع الرشاشة من طائراته ودباباته . . متخذاً من هذا السيل البشرى الهائل من اللاجئين ستاراً يقيه قنابل أعدائه الذين يترفقون بهذه الملايين من القطعان الآدمية الشقية التى شرّدتها وأشقتها شرذمة صغيرة من الطغاة .

● ألقى البلجيكيون سلاحهم . فكان لذلك النبأ أثر الصاعقة فى العالم كله . . أما الذى رواه لفرقتنا المدفعية

فقد كان هادئاً ، ودعا سامعيه إلى تناول قدح من الشاى !.

● ولم تكن تلك المفاجأة الأولى فى ذلك النهار . فإن الألمان لجأوا إلى الدعاية بالطائرات لتثبيط الروح المعنوية فى جيوش الحلفاء ، فراحوا يلقون أوراقاً بالإنجليزية والفرنسية على الجنود . . فى الأولى كنت تقرأ :

« إنكم محصورون . . لقد انتهت المباراة فالقوا السلاح لنأخذكم أسرى »

وفى الثانية تجد : « إن زعماءكم قد فروا بالطائرات . . وبلادكم أصبحت خرائب وأطلالا . . فالقوا سلاحكم »

● فكأن صاحب هذه الدعاية من الألمان قد عرف كيف يخاطب كل جماعة بلغتها . . وهذه هى روح الشر الخبيثة المتأصلة . . التى تدرك أن الإنجليز قوم رياضيون فأشار لهم بأن « المباراة قد انتهت » ! . . واتخذ مع الفرنسيين لهجة دنيئة أخرى بإثارة الأنانية .

وجعل الإنجليز من هذه الوريقات دعابة أى دعابة !
وكانوا يقولون : إن الألمان لا ريب فى كرب حتى ينزلوا إلى هذا الدرك ! . .

ليت هتلر كان هناك ليسمع ما يقولون ! وليدرك ماهى النفسية الإنجليزية . . وليعلم أن المباراة أبعد ما تكون عن النهاية . . لأن المباراة كانت قد بدأت يوم دنكرك . .

● لم يكن أحد من هؤلاء الرجال يجهل مصيره . . كان البحر وراءهم والعدو أمامهم . ولم يكونوا دون رجال طارق بن زياد شجاعة وإقداماً . لم يعودوا يذوقون من الطعام إلا لقمة ، ومن النوم إلا سنة . . أصبحت حياتهم ناراً فى كل بقعة حولهم من الأرض ، وناراً فى كل طاقة فوقهم فى السماء . .

ووصلت إليهم رسالة من مليكهم الامبراطور . . يحيي ويفخر بشجاعة القوات البريطانية ومقاومتها خلال أصعب الظروف وأشد المتاعب . . فسجلوا بذلك شهامة لم يسبق لها مثيل . . وأن قلب كل فرد فى الوطن يخفق لهم فى هذه الساعة المحفوفة بالخطر والهلاك . . وأى هلاك : — لقد كانت الجحيم قد انتقلت إلى الدنيا ، إلى ساحات « الفلاندر » هذه . . وكان المجد قد عانق الموت وسارا جنباً إلى جنب ، عند الفجر ، يتنزهان

فى أول يونية ، على شاطىء دنكرك . . ومن وراء ،
بدت ألسنة اللهيب التى تلتهم البلد تتحول إلى ألوان
برتقالية ، بعد ما كانت زرقاء . . والقنابل تزلزل الأرض
وتزعزع الكون . . وتحولت القاذفات المغيرة عن
المصانع والمنازل إلى الجنود المنسحبة المرهقة بالتعب
والعناء ، يضربها الماء إلى وسطها فى هروعها إلى السفن . .
فتضربها القاذفات بقنابلها ومدافعها ، وتحصدها كالهشيم
بلا رحمة ، ولا كرامة . . ثم تولى هاربة عند وصول
موجة هائلة من « باصقات اللهب » البريطانية . . ويترنح
بعض « الميسر شميت » وينقلب فى الهواء ويسقط فى البحر . .

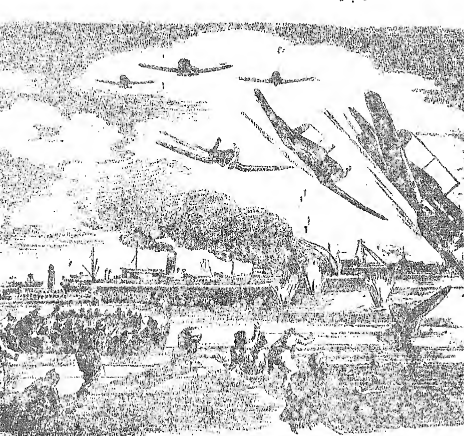
وظلت السفن تنزح تلك الأشباح البشرية وتقلع بها . .
فتسمع الدعاء من كل جانب ، من المحرومين ، للسابقين
إلى النجاة والفوز بالحياة ، دعاء السلامة واللقاء فى انجلترا . .

لقد تحولت الدقائق إلى ساعات ، والساعات إلى
أبدية . . فالسفن تضطرب وترقص كالسكارى أو المجانين
بين القنابل المتفجرة فى الماء من كل صوب . .

والقلوب والهة على أصحابها ، وعلى أحبابها ، القريبين

والبعيدين . . والعيون تتحول لـكيلا ترى الجثث التى تطفو والتى تتمزق . . والأجسام التى كانت لشدة ضناها وحاجتها إلى النوم ، أقرب إلى الجثث . .

والسفن تتحرك كما يشاء لها القدر . . وما زالت دنكرك وراءها ، جبهة عالية مشتعلة ، يتصاعد لهبها فى إباء وكبرياء ، إلى عنان السماء . .



المـــــراجع

Albert Rivaud :	*Le Relèvement de l'Allemagne*	A. Colin, Paris 1938
André Fribourg :	*La Victoire des Vaincus*	Denoël, Paris 1938
Robert d'Harcourt :	*l'Evangile de la Force : le visage de la jeunesse du* III *Reich*	Plon, Paris 1936
Sir N. Henderson :	*Failure of a Mission*	Berlin 1937 - 1939
S. Graham :	*From War to War 1917 - 1940*	London 1941
J. Mackintosh :	*The paths that led to War*	London 1941
André Maurois :	*Tragédie en France*	New York 1941
E. Bois :	*The Truth about the Tragedy of France*	London 1941
Cecil F. Melville :	*Guilty Frenchmen*	London 1941
André Simon :	*J'accuse*	London 1941
Alex. Werth :	*The last days of Paris*	London 1941
Simone Routier :	*Adieu, Paris !*	Montréal 1941
D. Freeman & D. Cooper :	*The Road to Bordeaux*	London 1941
Gun Buster :	*Return via Dunkirk*	London 1941

Histoire Universelle Illustrée des Pays et des Peuples, T.VIII Quillet Paris 1941

Larousse du XXe Siècle

l'Illustration, la revue des Deux Mondes, la revue de Paris.

Foreign Affairs, life, Collier's, Look, Spot, etc. (New York)

مذكرات المؤلف أثنـــاء مقامه فى أوربا شتـاء ١٩٣٧ وربيع ١٩٣٨ و ١٩٣٩ إلى مابعد نشوب الحرب العالمية الثانية ومصادر أخرى

الغـــلاف للفنان عبد السلام الشريف

الزخارف للفنان على كامل الديب

فهرس

صفحة

الاهداء ٣

هزيمة المنتصرين ووثائق معاهدة فرساى (بالصور) ٥

١) استعراض ٢٢ سنة : بين حربين ٩

٢) فرنسا وانجلترا غير مستعدتين للحرب ٢٥

٣) ثمانية أشهر تضيع على الحلفاء ٣٥

٤) المسائل الشخصية تعطل سير الحرب ٤٥

٥) نجاح الهجوم الألمانى الخاطف ٥٧

٦) فرنسا تفترق عن انجلترا ٧٥

٧) دور المرأة فى انهيار فرنسا ٩١

٨) آخر أعياد الحرية فى باريس ١٠٩

٩) أوربا فى ربيع ١٩٤٠ ... ... ١١٤

١٠) الانهيار المعنوى : حرب ولا حرب ! ... ١٢٠

١١) الطريق الى بوردو ١٣٥

١٢) أيام باريس الأخيرة ١٦٠

١٣) الجلاء عن دنكرك ١٧٤

المراجع ١٩٥


تحت الطبع
وثائق الحرب العالمية
مأساة فرنسا
الرقص على البارود
أسرار انهيار أوربا
المرأة لعبتها الرجل
قصة الملك الشاب